وارد بدر السالم

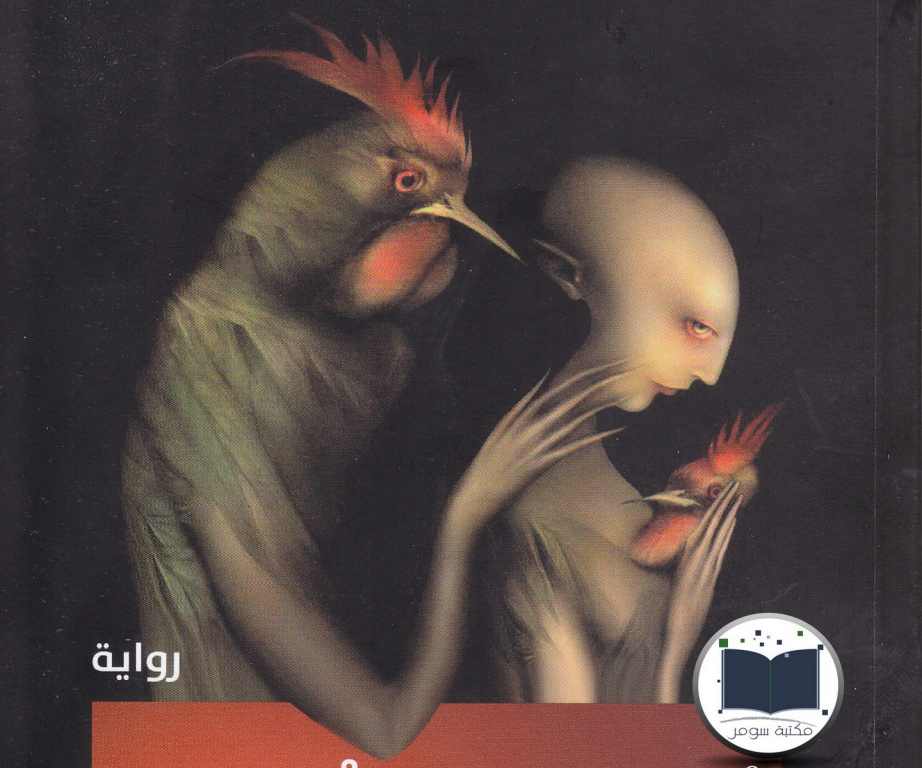

رواية

مولد غُراب

مكتبة سومر
15.8.2017

الطبعة الخامسة

سطور
للنشر والتوزيع

Telegram: SOMRLIBRARY

مولد غراب وارد بدر السالم

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

مولد غْراب

رواية

وارد بدر السالم

الطبعة الخامسة 2016

سطور
النشر والتوزيع

Telegram: SOMRLIBRARY

مولد غراب
وارد بدر السالم
Grab Birth
Wared Bader al Salem

الطبعة الخامسة 2016
الرقم الدولي
ISBN 078-9933-9194-2-9
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07905219996 :e.mail: bal_alame@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بأذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sutour for Publishing and Distribution
Baghdad- Iraq- Al Mutnabi street- Jadeed Hassan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour, The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

Cover Deisgn & Lay- out by: **Sillat Media**

Telegram: SOMRLIBRARY

قد يحدث تشابه أو تطابق بين الاسماء الواردة
في الرواية مع أسماء حقيقية في الواقع.. ربما
هذا مجرد مصادفة مع يقيني إن هذه الفضيحة قد
وقعت بالفعل..

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

مفاتيح الكلام

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

ببطء أخذت أشباح الصرائف والاكواخ تفترق وتبتعد تحت غلالة فجر طباشيري منسحبة داخل قبضة تفتّح آخر منبعث من ركام ليال باردة ثقيلة. ومثلها الحقول الغاطسة في زرقة الماء المسودّة والتي تناوبت في الابتعاد تحت كثافة الفجر الذي علته غيمة من الضباب الكثيف، تخلل أعمدة النخل وأحكم انتشاره على أشجار الغَرَب والنبق والصفصاف وقطعان النخيل، ولاح، لمن رآه عبر ضفة الشط الثانية كما لو انه بقايا رماد ليلة فائتة، وبدت القرية تتفكك وتنفصل صرائفها واكواخها وتتغير مواقع حقولها كلما جذف الرجلان بمشحوفهما الصغير تحت ظل وقت مُبكر انبجس من جمرة ليلة ساخنة شدّت على القلوب وهيجّت مواجع كثيرة في ذاكرة الشيخ حسن والرجال الموتورين الذين ملأوا المضيف الى آخره متراصّينَ وخائفين بعيون تناوب القلق في لمعانها وحلوق أيبسها البرد والكلام الكثير الذي لا طائل من ورائه دائماً.

يدري الرجلان المبعوثان اللذان لفّا وجهيهما بغترتين بيضاوين مرقطتين بسواد ان الدرب بعيد وطويل الى هور العگر وقد لا يكفي

Telegram: SOMRLIBRARY

النهار بطوله للوصول الى السيد عنبر عبد علي السيد نور ولكن لابد من الوصول اليه، الى قريته الممتعدة قسراً في مفازات الاهوار المترامية مع الماء والقصب والى مزاره الذي يحج اليه الناس قاطعين النهارات والليالي المظلمة، ولابد ان يكون ذلك اول المساء ولابد من مضاعفة الهمّة والاستحواذ على الوقت لايصال واقع الحال الى سيد الاهوار المتخثر في ذاكرة الناس مهما كانت الاحوال قاسية ومخزية.

وفي آخر تفكك لاوصال القرية الملغومة من جهتها الجنوبية شخّص كوخٌ ما كأنه جثة فاسدة، وبدا منفصلاً من تلقاء نفسه عن بقية اكواخ القرية، وربما واتى الرجلين شعور بأنه منفصل منذ زمان بعيد ليس لذاكرة حيّة ان تنتبه اليه إلا الآن.

وفي اقتراب المشحوف الصغير منه، وهو يلتف مع التفاف الشط، حيث تبدأ رحلة النهار البارد، خيَّل للرجلين الملثمين انهما يسمعان أنيناً- ربما حدث ذلك فعلاً في اللحظة ذاتها- ربما هو أنين مظلوم لقدر غامض.وربما هو انعتاق سنوات بعيدة تسلّقت عليها طحالب الشط وأشناته وغطّت قتامتها بتناسلها الشرس وربما هو اي شيء غامض لليالٍ كثيرة سالفة لما يزل موصولاً عبر هذا الفجر الطباشيري في كوخ القرية الجنوبي المنفصل بالمصادفة المقرونة بما يفوح الآن من صراخ مقصود، ولم يشأ الرجلان ان يقولا شيئاً لبعضهما، لكنهما أشاحا بوجهيهما كمن يتجنبان النظر الى فطيسة وهما يجرّان الماء بمجذافيهما بقوة تاركين القرية وراءهما باتجاه مستعمرات القصب والبردي المنعقدة في غيوم ضبابية هابطة الى الحد الذي تراءى لهما ان الوصول الى قرية

Telegram: SOMRLIBRARY

السيد (عنبر) يبدو ضرباً من الخيال في الجو البارد والمعتم.

وما ان اقترب المشحوف من لمّة قصب مُتعانق ودلف الجسد الخشبي كاملاً في ممر ضيق حتى انهمر صمت آخر محفوف بفجر مضبّب، حيث نأت القرية تماماً وغرقت في صخب سري تحت وطأة حدث تسرب من بين مفارق الاصابع عنوة خارقاً دغل سنوات قديمة، كحقيقة يتوجب قبولها، وزحف الضغط القاتم الذي يعاني منه الرجلان على نحو جعلهما ينظران الى بعضهما بمعنى، ربما أدركا الآن انهما بلا فوضى. مرق هذا الشعور المتكاثر في عيونهما الطالعة من الغترتين المرقطتين بالسواد، ولم يبق إلا صوت الفجر المتكاثر.

انحسر كثير من الكلام وكثير من اللغو وسينحسر ما هو اكثر من ذلك وقد يبقى صوت (الشيخ حسن آل خيون) وحده يرّن في رواق المضيف ذي الخمس عشرة شبّة؛ وفي مفاصل القرية المدانة بفعل أخرق عزَّ على الجميع أن يحدث مثله بينهم.

وما كان الشيخ حسن سوى أن يصيح: قضاء وقدر..ويبدو كمّن يدفع النبال بيدين عاريتين أو يصرخ باستسلام: ماذا أفعل؟ وكان جمرالموقد يتلامع بين عينيه غير المستقرتين- عيني الذئب المحاصر بما هو أعتى من لمعان عينيه ولعل هذا ما كان يجول بخاطر الرجلين اللذين اندفع بهما المشحوف الى عراء قاتم من الضباب داخل اسطوانة من القصب والفراغ والصمت البارد إلا من شخير الماء المخنوق بالجذف المتساوق مع أيديهما المتسارعة وربما غير ذلك ايضاً، فالألم حقيقي هذه المرة، والرحلة غامضة ووصايا العشيرة ورجالها المهمومين ضجة

Telegram: SOMRLIBRARY

مشتبكة في الرؤوس وأكذوبة أمست حقيقة شاخصة ليس من أحد قادر على إنكارها والتخلص مما هو مكتوب في لوح القدر وقد يكون الحل مستحيلاً، لكن لابد من طرق الابواب الى آخرها، وإلا المناوئون لحلول الشيخ حسن يتكاثرون مع لحظات (الطلق) التي لا يريد أحد تصديقها مهما كان الثمن، وهي تتنزع مهابة الجميع وتنكِس الرؤوس لحظة بعد لحظة مثل لعنة قد يركع الجميع لسطوتها، لسطوة قدر أعمي يتكرر بغموض، وإن على نحو ما، في رأس عارم الشهوة، بعيداً عن الممكنات المعروفة في هذا التشابك وبحلوله التي ينزع اليها الأجاويد والخيّرون والسادة والفرايض وهم يتزاحمون في مثل هذا المِصاب عقلاء وحكماء لا ينطقون إلا بالكلام الصحيح.

أزاح أحد الرجلين غترته عن فمه فبان جزء من شاربه الكثير:

- منذ سنوات لم أطِرّ هور العگر..

تكاثف القصب والعنگر وامتد امامهما بشكل غريب وتلاقت ذوائبه ببعضهما فشكّل في ممر المشحوف سقيفة ألقت عليهما ظلاً سميكاً بارداً من الفيء والضباب وارتسمت لهما برودة لاذعة وبدا أن المشحوف يواجه دغلاً وانحساراً للممر الوحيد، فاستعانا بسيقان القصب وقتاً عسيراً كاد يفقدهما صبرهما لولا أنهما يعرفان أن الگواهين ليست عميقة دائماً وان الجزرات ستواجههما دائماً وعليهما في المرات القادمات ان يخوضا في الماء البارد دافعين المشحوف الى مياه اكثر عمقاً في هذا الممر أو مما يأتي غيره، باتجاه الجنوب دائماً، ولعله لهذا السبب قال الرجل نفسه ذو الشارب الكثير:

Telegram: SOMRLIBRARY

- عهدي بهذا الدرب منذ سنوات.. إنه أكثر ضيقاً مما تخيلت..

ردّ الرجل الآخر بصوت مخنوق:

- لا... إنه الدرب نفسه...

ثم أضاف:

- درب السيد عنبر من هنا..

لم ينفتح الممر عن مجرى أوسع وأعمق. وظلا يسحبان حزم القصب والبردي، فيندفع المشحوف بطيئاً وكأن قاعه يحتك بالقاع ذي الجذور الكثيرة.

قال الرجل ذو الشارب:

- من المفروض أن نصل الى إيشان (أبو جنة) بعد انتصاف النهار كما أتذكر!

قال الرجل الذي في صدر المشحوف:

- سنصل إنشاء الله.

انفتح الممر بعد انفكاك ذوائب القصب والبردي وانفتاح الصوابيط وصار المشحوف اكثر خفة وهو يجوس في مياه أعمق، فيما انزاح شيء من العتمة المضببة، وبدا الضباب آخذاً في الانحسار وثمة في السماء ضوء يُجاهد لأن ينعتق بصعوبة، فغمر الرجلين إحساس مُباغت بالدفء، فأنبعث فيهما نشاط آخر وأخذا يجذفان بحماسة ثانية تاركين وراءهما أمواجاً غليظة وزبداً كثيراً.

حررا وجهيهما من الغترتين المرقطتين وراح المشحوف ينزلق باندفاع رشيق خفيفاً إثر تخلصه من آخر فرشة دغل وانفتاح الممر كلياً على

Telegram: SOMRLIBRARY

فضاء مائي اكثر سعة، فكشف لهما سماء متسّعة لكنها اقل بياضاً بسبب تقلص موجة الضباب وتشتتها وإندلاق أكثر من حزمة شمس هنا وهناك ساقطة على المياه وهي تثير دفئاً ولغطاً مفاجئاً لطيور وأصوات مُبهمة انعتقت مع السطوع المتفرق والاندفاعة السريعة للمشحوف المتحرر من ربقة الحصار المبكر حتى لحظة انكماش الضباب التدريجي وولادة شمس طرية أنبتت ظلالاً مقصوصة للأشياء التي تلتقطها عيون الرجلين بانفتاح او انغلاق المسارب المائية التي تقطع الدرب الوحيد الى هور العگر أو تسير بمحاذاته منبثقة من أجمات شديدة التلاصق لم تكن غريبة عليهما وعلى رجال كثيرين، في غزوات كثيرة، أرهقت الدواوين والمضايف والرؤوس بالبارود والألم والدم من أجل شيء.

مصيبة تتلو مصيبة، آفاق منفتحة على الموت والنار، يعرفها الرجلان ويدركان اللغة المثقلة بالبنادق والهوسات وعض الشوارب في انطلاق أول رصاصة طائشة، ولعل الوصول الى السيد عنبر كما يفكر الرجلان هو جزء من الرغبات المستحيلة التي عصفت بالقرية وحولتّها الى كتلة مُلتهبة من الظنون والشكوك والفوضى وقد تكون الأسوأ من المصائب تلك التي قادتها الى عنبر سيد الاهوار.

مَن يُصدق هذا؟ مَن يُصدق ان ما حصل جلب الينا الذباب والذئاب؟

قل أي شيء يريح اعصابنا التالفة؟

قل أي شيء يا شيخ!

قضاء وقدر يا رجال!...

Telegram: SOMRLIBRARY

قل للناس إنها فضيحة العشيرة والقرية...

هذه بلوى يا ناس ابتلانا بها الله.... قضاء وقدر!....

قل كل شيء بوضوح. وللنساء المعتكفات على خزي ما بعده خزي قل لهن: الدنيا صارت هكذا الرجال تحبل بدلاً من النسوان!

يا رجال لا تكبّروا المشكلة هذه ارادة الله عزوجل ومن يعترض فهو كافر وليخرج من بيننا ملعوناً في الدنيا والآخرة.

– على مهلك يا شيخ حسن،

– لا رادّ لارادة الله سبحانه وتعالى.

– لكن سبحانه وتعالى جعل في رؤوسنا العقول وميّزنا عن البهائم.

– هذا قضاؤه وهذا قدره.

– نِعمَ بالله يا شيخ حسن فهو على كل شيء قدير. لكن هذه فعلة شيطان رجيم!

لايريد الرجلان ان يستفزا حواسهما لإعادة التقاط اي شيء من شأنه إيذاء النفوس وتكدير الخواطر المحتدمة، فما كان قد كان وليس بوسع الشيخ حسن ان يوقف تدفق الألم في الصدور وتسوية الفضيحة بالقتل أو الحيلة أو الحرق أو الجلاء...

اخترقته النبال في ليلة فريدة، فصدّها بشجاعة، لكن الرماة أصروا على القتال في أطول ليلة تعيشها قرية آل خيون فكانت زمناً ثقيلاً قاسياً أعاد إليه سنوات منسية ونزقاً قديماً دفنه في طيات روحه وأماته بشكل نهائي ولم يُبق شاهداً واحداً غير النهر الجاري والسماء العميقة.. هل كان ذلك حقاً؟

Telegram: SOMRLIBRARY

انتشرت الشمس وفكّ شعاعها عُقد الضباب وحلّ الرجلان أزر الصوف الخشنة عن جسديهما، فيما ظل المشحوف ينساب في ممر منحن ليس مُحاطاً بالبردي كما انه ليس فسيحاً تماماً وترك هذا الشعور فيهما من ان الوقت يتساوق مع الدفء ومنتصف الدرب الذي ابعدهما عن القرية باتجاه قرية السيد عنبر في الهور وربما ستهون اشياء كثيرة في بركات السيد البعيد الذي تقصده القرى المفجوعة والعشائر المتقاتلة والرجال المطاردون فسيجدون عنده أمناً حقيقياً وسلاماً متمنى، وثمة من يجد لديه أملاً بشفاء مستحيل من أمراض قاتلة أو ممّن ركب الجن رؤوسهم وأحالهم الى كائنات اخرى، ترى ماذا سيقول عنّا السيد؟

– سيقلبها الله بكم يا آل خيون

– مولانا وسيدنا إنها بلوى قصدناك بأمل ان تستر فضيحتنا.

ويدرك الرجلان ان وصولهما الى القرية المترامية في البُعد سيجعل فيهما ثقة أكيدة لتخطي نصف المشكلة، فهذا الولي هو أكبر من (فِريضة) واقل من ملاك.

– هل انت ملاك يا سيدنا؟

– استغر الله أنا انسان كما أنتم.

– لكن العيون العمياء تبصرك يا مولانا؟

– استغفر الله وأتوب إليه إن الله هو العليم البصير وهو القادر على كل شيء.

– مولانا سيموت رجل البيت ولديه من الاطفال سبعة، دنت ساعته

Telegram: SOMRLIBRARY

– شافاه الله وعافاه «إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»

– ولكن رحمة الله واسعة / الله عزوجل هو الذي يغيّر الآجال ويُزيد من الارزاق / قُم يا رجل بإذن الله إلى أطفالك وبيتك/ يا سيد عنبر رأتك القرية في حلم أخضر بلون القصب / ها نحن نقصدك في زمان القحط والجوع، إننا نموت يا سيدنا / لله حكمة في كل شيء، تمسكوا بالصبر والصلاة وأعينوا بعضكم على بعض / اقتسموا الرغيف الواحد / واشربوا من طاسة واحدة / يا ولي الله الصالح هذا ولدي بين يديك ما قال كلاماً منذ ولدته / انطق بإذن الله يا ولد واذهب مع أمك وكن ولداً عاقلاً / يا سيد الأهوار ومحجة القرى ومزار احلامنا / يا ولينا البعيد القريب/ يا ولينا وأخانا وشفيعنا / اننا نقطع الليالي والنهارات من أجل ان نراك ونتبرك بطلعتك / أنت ولينا الى السماء ومبعث النور في رؤوسنا.

وفي رأس الرجلين تمر صور الكرامات للسيد عنبر وتتوقف كشيء باهر وتنمو مثل أمل بهيج وتتفتح كسلام حقيقي قادم على أجنحة القصب وتتفاقم امام طريقهما مآثر الرجل وملكته العجيبة في حلوله الساحرة لمشاكل مستعصية سكبت بسببها الدماء وسقطت بها الرؤوس الكثيرة، فيشعران بالتآلف مع مشوارهما الذي يقترب على ظهر نهار بارد، وينغمران بأمل مزهر وهما يثقان برؤيا السيد وبصيرته التي وهبها الله فصار مزاراً مقصوداً من الأقاصي المعزولة حتى الصحراء المنفسخة بحدود الاهوار وبرغم ظهور سادة واولياء صغار واصحاب

Telegram: SOMRLIBRARY

كرامات، لكن السيد عنبر ظل المرجع الحاسم لقرى الاهوار البعيدة وسيد المسافات مهما بعُدت وتباعدت في الدروب المائية الوعرة؛ ولا يزال هذا الشعور يكبر في دواخل الرجلين كلما انطوت المسافات وتصرمت الساعات منسوجاً بكل ما هو خارق واحياناً فوق قدرتهما على التصور مما هو حاصل او سيحصل، لكن هذا الشعور قد يتبدد على نحو مفاجيء لسبب مجهول ربما بسبب الارهاق او البرد او اليأس أو طول المسافة، لكنهما يقرّان ان لا شيء يقبل التأجيل كما لا يحتمل اليأس المطلق ولا يحتمل الأمل الكامل، فكل ما كتبه الله على العباد الضعفاء يصير وتراه العيون وتلمسه الأيدي.

ولعل هذا كان دفاع الشيخ حسن آل خيون في آخر محاولة لدرء الخطر القادم امام رجاله الذين امتلأ المضيف بهم، وما كان احد يعترض على هذه الإرادة غير المرئية لكن، مع هذا، قاتلوا الى آخر لحظة ممكنة.

– يا رجال.. اتقوا الله.. هذا قضاء وقدر.. لا تكفروا بمقدرة الله فليخرج ملعوناً من يشك بهذه المقدرة.

كانت عينا الشيخ حسن تحمران ويكتسب وجهه صرامة غير معهودة وهي صرامة لا يشعرها الجميع، وكان قلبه ينبض بالكراهية لاشياء قديمة بزغت هذه الليلة في جمر الموقد، ثم، كما خيّل له، تناقلتها العيون الملتهبة فينبري إليه وعلى نحو مُباغت صوت ليشبك رأسه المصدوع صوراً مختلطة:

– لا رّاد لإرادة الله تعالى يا شيخ حسن... ولكننا لسنا بهائم!

Telegram: SOMRLIBRARY

فيدوس الشيخ حسن على جمر شديد التوهج وهو يصيح:

- انظروا ماذا فعلتم؟.

تسارعت في رأس رجل آخر صور أخرى لسنوات قديمة، وجد انها حدثت قبل وقت قريب، كما لو حدثت يوم أمس، على ضفة النهر الجاري.

فقال باستخفاف:

- سامحك الله يا شيخ حسن... كلك عقل وحكمة!

وقبل ان ينطق الشيخ.

قال الرجل نفسه:

- اليد تحصد ما تزرع!

وكانت عيناه تقولان للشيخ حسن شيئاً حاسماً، فيما بدأ الآخر وكأنما بوغت حقاً بهذه الوقاحة من رجل يعرفه تماماً، وقد بدا التوتر مخيماً على المضيف والرجال، حتى تدارك الامر رجل آخر قائلاً:

- يا آل خيون.. كفوا عن هذا الكلام.. لقد صرنا كلام للرايح والجاي.

فتسارع صوت آخر وصاح بثقة متناهية:

- لا نحصد ما زرعه الشيخ حسن البليه بسببه.

واصطدمت الاصوات ببعضها، منعتقة من الصمت الطويل وحاصرت الشيخ حسن بقوة، واستنطقته بأعنف ما يكون الاستنطاق، لكن الرجل تدرّع بمشيئة الله الجبارة، وعدّ الذي حصل درساً قدرياً على الجميع فهمه والاستدلال بمدلولاته الاخلاقية.

Telegram: SOMRLIBRARY

لكنه كان منكسراً، اخترقته الاصوات التي اسكتها ثلاثين عاماً، فارتضى ألا يضع على خطوات الآخرين قيوداً ما، وأحسّ ان ثلاثين سنة ماضية تداهمه الآن وتفرض عليه سُنناً جديدة لا مفر من الاعتراف بأن كل شيء اصبح مخترقاً بعناد، وأن الصمت الطويل لابد ان ينفجر، ربما تناقلته عبر المواقد والظلام وربما النهارات البرية، جيلاً بعد جيل، ولكن كيف تسنّى للآخرين ان يرغموه على قبول ما هو غامض او مطوي من صفحاته السرية.

هل الشجاعة ان يمتلك المرء اسراراً كثيرة؟

عندما سلك الحيلة طريقاً للتمويه فوجيء بأن في القرية حشداً من الرؤوس المحتالة، كما لو تقطع عليه طريق البراءة والنجاة، ومع تقادم الساعات الساخنة كان كل شيء يميل الى التفكك والارتخاء وما كان امامه سوى ان يفرش عباءته وهو يقول بصوت هدّه التعب الحقيقي:

– يا آل خيون أنا اعرفكم.. أنتم لا تحلون المشكلة إلا بمشكلة فإذا لم تؤمنوا بقضاء الله وقدره، أعطونا وقتاً كي يهدينا الله الى ما نصل إليه من حل.

قال احد الرجال بإعتداد:

– المشكلة محلولة يا شيخ حسن، نبعث بمن يأتي إلينا بالسيد عنبر فهو ولينا وسيدنا. ونحتكم إليه.

ردّد الشيخ حسن بحياد:

– ما في الأمر احتكام يا رجل.. فلماذا تفضحوننا عند أولياء الله؟

ومن قعر المضيف قال احد الرجال:

Telegram: SOMRLIBRARY

- أولياء الله سيعرفون الحقيقة.

انتظمت انفاسه قليلاً، ثم قال:

- لنتركه بضعة أيام لنرى حقيقة الأمر، فإن كان مرضاً سقيماً نفخ بطنه فنداويه والله الشافي وهو المعين.

صاح احد الرجال:

- إنه يموت يا شيخ... هذا حرام! إنه نَفَس حتى لو كان في داخله شيطان.

وصاح آخر مُحتداً:

- كشفت عليه النساء يا شيخ!

نطق من نطق في لجة الاضطراب الذي امتّد ليلاً بارداً بطوله إلا أن الرأي الذي كاد يؤدي بفتق الجراح إلى آخرها كان لرجل قصير وجد نفسه يستوعب الفضيحة منذ بداية الليل حتى آخره حينما قال:

- لنستغفر الله كثيراً يا رجال العشيرة، لنستغفر الله من هذا الزمن النجس الذي باوعنا فيه على العجب وخلانا ندافع فيه عن بطون الرجال الفاسدة، وما حصل قد حصل، وقد يحصل ثانية في أي بطن من بطوننا، وقدر الله لا يفرق بين مخبل وبين شيخ فكلنا خاضعون لمشيئته سبحانه وتعالى..

وعندما سكت، كان واضحاً للشيخ وبقية الرجال ان الرجل القصير بذل جهداً صادقاً وهو يتحدث، حتى وهو يستطرد قائلاً:

- هنالك ظالم وهناك مظلوم بيننا، فإذا ما عرفنا المظلوم فيجب أن نعرف الظالم.

Telegram: SOMRLIBRARY

تمكّن هذا الرجل القصير من ان يحكم الصمت بين الرجال بشكل جعل الشيخ حسن آل خيون اكثر انتباهاً واكثر توتراً ايضاً...

قال الرجل مواصلاً حديثه وهو لا يصدق أنه تمكن من إيقاف الفوضى والشكوك:

- المظلوم موجود بيننا أو قريب منا، والظالم واحد منا، ونحن نحتاج الى رضا الله سبحانه وتعالى عنا اولاً واخيراً.

لا يزال الرجل يتكلم بينما تتوهج العيون برؤى مستفيضة وتعترف القلوب باقترافها الآثام تلو الآثام، ربما هي لحظات مشدودة، لكنها كانت كافية لان تنير شعاباً مظلمة في الدواخل المقموعة، وقد كان القصير يدرك شيئاً من هذا وهو في تدفقه اللاهث:

- علينا بالوالي الصالح عنبر فهو المعين بعد الله جل شأنه، وربما ننال شيئاً من بركاته، وانا ارى ان يقصده رجلان منا ويطلبا منه الحل والمشورة وإلا سنبقى نأكل أنفسنا وتصير فتنة بيننا سيتبرأ منها حتى الله سبحانه وتعالى..

وبدل أن تكون فتنة اهتزت الرؤوس موافقة وترادفت الاصوات مستحسنة فكرة الرجل القصير الذي التقت عيناه الآن بعيني الشيخ حسن، وهو يشعر انه قال كلاماً حقيقياً يعتمل في صدور الكثيرين.

وما كان الشيخ بالنسبة اليه في خاتمة الامر سوى رجل من هؤلاء الرجال ارغمه على الانصات وفرض عليه ما كان يخافه.

وفي الفجر الطباشيري كانت السماء مختفية خلف سحابة ضباب ثقيلة، وكان الرجلان المبعوثان الى السيد مثقلين بالسهر والتعب والنعاس.

Telegram: SOMRLIBRARY

مفاتيح السؤال

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

فاجأهما ضوء شديد السطوع ينعكس من مرايا متوهجة تزداد صفاء وألقاً في كل لحظة قدسية منبهرة بالصمت الخالص وروائح البخور الطاغية، كما لو ولد نهار جديد اكثر نضارة من النهارات كلها انبثق من جناح المساء الهاطل بكثافة وتشظى زاهياً عبر العناقيد المدلاّة بانتظام، وقد بدا في مزار السيد عنبر كل شيء مرتباً وبسيطاً وفاخراً بقناديل ولوكسات وفوانيس معلقة بتراتب يمنح الرائي لها، بعد ان تعشو عيناه قليلاً ثم ينتظم السطوع الفاقع بلون منساب كشجرة موزعة الاوراق والاغصان، يمنحه إحساساً بالطمأنينة والخفة وهو ينظر الى نجوم فرّت من السماء واجتازت ليلاً ساحقاً لتخترق سقف المزار وخصاصه القصبية وتتعلق كأقمار منية ترفرف فوق رأس السيد وتسبغ عليه مهابة حقيقية وتمنح وجهه ألقاً مُضافاً شدّ الرَجلين إليه وأكسبهما شعوراً نفاذاً بالألفة والسلام والغبطة، فنسيا تعب النهار البارد الطويل وهما ينغمران بحميمية في فيوضة الجو الفارِه وروائح البخور والنعناع والدغل والرطب.

وربما كان عليهما أن يهدءا كثيراً وينزعا من رأسيهما فكرة الحدث

Telegram: SOMRLIBRARY

المتوتر ويتعاملا معه في هذه الواحة المضاءة؛ كحقيقة حصلت برغم الجميع، وكما لو ان احاسيسهما الاولى امتزجت في هذا السطوع المتورد فانبعثت فيهما بهجة سريعة كانا قد افتقداها، كما الآخرون في القرية تحت ضغط الولادة القادمة لرجل ما كان ينبيء وجوده عن مثل هذا الاحتمال الأكثر رعباً وهو الضغط الكامن في اعماقهما منذ رحلة الفجر الطباشيري، منذ التفتت الاول لسحابة الضباب وهو التفتت الذي اخذ يحدث تدريجياً كلما ازداد نصوع المزار بدخول سرب من فراشات ملونة اخذ يحط على كتفي السيد او يتبعثر على لحيته الصغيرة ثم يطير السرب بعد لحظات تحت انارة باهرة منقاداً الى هاجس النهار الاستثنائي الى آفاق كثيرة الظلام، لكي تدخل حفنة فراشات زئبقية وتتوزع على وجه السيد وكتفيه وتدور بعدها كأنها قطع ضوء ملونة.

وكانت عيون الرجلين تنتقل بين الاسراب الشفافة المضاءة غير مصدقين ان هذا يجري امامهما، فيما بدا السيد عنبر اكثر سعادة وحضوراً وقدسية كما لو انه غير موجود في هذه اللحظة المكتظة بالأمان العارم!

واخذ الرجلان يستريحان تماماً في جو أشاع فيهما دفئاً وحقيقة ما، وعيونهما تتخاطف على كل شيء: السجادات المبرقشة التي تقبع في زواياها طواويس براقة متناظرة وكتابات قرآنية وأزاهير وأقواس متتابعة تتصاغر دائماً حتى تتلاشى في الحافات او تصعد على خصائص المزار في بعض المواقع حيث يشتد ضوء خارج الاضواء ليكشف

Telegram: SOMRLIBRARY

صورة صريحة لرجل ذي وجه وضَّاح يفيض البشر من طلعته، وتكاد عيناه تنطقان وكلما امعنا النظر فيه بدا وكأنه سيقول لهما شيئاً ما، وأن الأسد المستكين امامه بوداعة لا متناهية، والذي يشاطره الثقة والاعتداد، سينهض من الهالة الخضراء التي اسبغت على الصورة كلها مشهداً مبجلاً شديد التأثير.

وثمة حول الصورة وفي الاتجاهات المختلفة تدلّت رايات خضر وبيض وسود صغيرة الحجم دائماً، ربطت منفردة دائماً، كما كان من السهل عليهما ان يلمحا خرقاً ملطخة بالحناء اليابسة مُحاطة بآيات من القرآن كتبت بماء الذهب وبمداد الاولياء الصالحين على مر الزمان، وعلى ورق متفطر بسبب القِدَمْ، وباستدارة عيونهما، وهي لما تزل في لحظات الإبهار المقدس، تتكشف أفرشة مُحلاة بخيوط الزنابق، وتتكاثر اعشاب ممدودة من خارج المزار متطاولة تتسلق اضلاع القصب المتماسك وقد تمتّد الى اكثر من ذلك وتلتف حول الافرشة المحمولة على صناديق مسواة بعناية كأنها تتبرعم من وجوه المخدات المستطيلة الاسطوانية، ولا يزال الرجلان في اقصى ذهولهما وسلامهما ايضاً مستسلمين للسطوع وهو يزيد من تفتيت الضغط الذي يعنيان منه، حتى شعرا بأنهما أخف من ان يكونا رسولين يحملان رسالة طائشة من شيخ ارتبطت به فضيحة دون ان يعرف احد مقدار ذلك الارتباط.

ومثقلين بالوصايا والنذور، وهما ينغمران في هذا الجو الملائكي المتجانس في الامل والسرور والافراح المكتنزة والضوء المتسرب فيهما.

Telegram: SOMRLIBRARY

عاد سرب جديد من الفراشات يحوم في الجو المشتعل بالضوء، وخامرهما يقين، في لحظة خاطفة، انهما سمعا اصواتاً برنين ضوئي تتعاقب بين الفارغات الصغيرة التي تتركها الفراشات في طيرانها ثم وجدا نفسيهما ينتبهان الى دخول السيد عنبر نفسه! كانا قد رأياه قبل قليل حين كانت الفراشات تطير وتحط على لحيته الصغيرة.

هل رأياه بالفعل؟ لم يلحظا أول الامر ما يشير الى ذلك، لكن دفقة ضوء انهمرت من السقف باتجاه الباب الخشبي ذي المسامير الغليظة وهو ينفتح عاكساً الوجه المتفتح والمبتسم في طلعة فتية مبهرة وقامة طويلة بدت تلامس حافات الضوء المعلق.

عندها لاحظ الرجلان ان السيد يضع على رأسه غترة خضراء مسفوفة من خيوط البريسم والفضة وكانت الانوار تزيد من توهجها وتكسبها لمعاناً فذاً تنعكس فيه ألوان اكثر بريقاً وكأنما عمامته الخضراء الصغيرة قنديل براق تزيده إشعاعاً ينعكس على حضوره البهي الذي اربك الرجلين على هذا النحو المفاجيء، لكن ابتسامته المتفتحة بعثت الاطمئنان امامهما وطوت مسافة شاسعة من الألم والحيرة والمجهول.

وعندما قبلا يده الصغيرة التي تشبه يد ملاك كانا قد اذعنا لمجيء سلام حقيقي وزمن جديد، وفي لحظة التقابل التي حفرت فيهما خضوعاً واستسلاماً عاليين كان السيد ينقل اصابعه الرقيقة بلحيته الخفيفة وشاربه المحفور بعناية، وربما لم يشاهدا ذلك ملياً، غير انهما تعلقا بعينين متفتحتين كصدفتين، ينبث منهما سواد غريب، ولم يكن

Telegram: SOMRLIBRARY

امامهما غير ان ينعما بالمثول المقدس بعد رحلة طويلة ويتخلصا من هواجس مريرة أكلت في اعماقهما كما أكلت في اعماق الشيخ ورجال القرية.

وفي لحظة المكوث الذي يسبق الاعتراف عاد كل شيء الى هدوئه، ثم تناوبت اسراب الفراشات بالطيران والتعاقب في التبعثر على لحية السيد وعلى كتفيه وطارت باتجاه منابع الاضواء بين الفوانيس واللوكسات كأنما ابتلعها فيض النور الحالم، وظل الرجلان ينظران الى السيد الفتي بإعجاب لا حدّ له، وهما منغمران في وطأة لحظات متماسكة من الصفاء، وانقشع من رأسيهما طنين الكلام الثقيل، ليغطسا في حلم اخضر مترامي الاطراف كأنه جنة غامضة.

ولعل هذا الفرح المتعاظم وحده كان كافياً لأن يزفرا ما في صدريهما مرة واحدة، وكان وجه السيد عنبر يبث فيهما آمالاً بوسع النهار الذي قطعاه في المسارب المائية، وبحجم السنوات التي عاشاها معاً وربما وجدا الآن انهما يستطيعان بحرية متناهية ان يقولا للسيد كل شئ عن حالة غريبة حصلت في قريتهما، سيقولان كل شيء بوضوح، غير ان سرباً آخر من الفراشات انبثق من قمة الضوء وتهادى يرفرف منتشراً ويتعاقب بين رفيفه كما خيّل للرجلين، رنين ضوئي هامس وهو ما جعلهما يتريثان مسحورين لهذه الألفة الحميمة وينظران الى اسارير السيد وهو يشير الى احد رجاله الواقفين وقد خلع غترته المسقوفة، فبان شعره مصفوفاً كأنما لم يعتمر شيئاً انعكس على ذؤاباته نثار من هالة الضوء الساطع فتخيل الرجلان ان رأس السيد يبرق مثل قارورة مُنارة.

Telegram: SOMRLIBRARY

اخذ الرجل الواقف الغترة وناوله اخرى زرقاء مفصصة بفصوص بيض وسوّاها على رأسه؛ ثم وضع عقالاً اسودا رفيعاً وتمهل في تسويته، ولاحظ الرجلان ان السيد بدا اكثر طفولة واكتسب وجهه معنى ثانياً تنور بنور سري جذاب انبث للحظته امامهما وهما يفاجآن بتحولاته الجميلة فابتسما، دون ان يقصدا ذلك، كما لو ان حلمهما البهيج قد انفلق عن حلم آخر اكثر نضارة وشباباً واملاً، وتسربت اليهما رائحة خضراء عندما حوّم سرب الفراشات وتناثر بين الاضواء.

وعندما اعتدل السيد وهو يتربع على مخدتين معاً تهيأ الرجلان لقول اي شيء، وبلا إرادة سعل احدهما سعلة خفيفة، إلا انه وجد نفسه غير قادر على ان يقول شيئاً، فبادر السيد بصوت رخيم، وهو يستشعر اختلاج الكلام في دواخل الرجلين:

- يا اهلاً وسهلاً... يا اهلاً وسهلاً.. كيف حال الشيخ حسن؟

بهت الرجلان معاً وفوجئا ان السيد يعرف شيخهم، وواتاهما شعور ما من ان السيد قد يعرف الغرض الذي جاءا من اجله...

قال الرجل ذو الشارب الكثير بصوت تسلل إليه الارتعاش:

- بخير.. بخير والحمد لله.. الشيخ حسن يبلغك السلام يا مولانا.

فعاد الصوت الرخيم:

- الله يسلمكم من كل مكروه... بارك الله بكم.. لا سلام إلا مع الايمان بالله وقدرته.

تشجع الرجل الثاني وقال لفوره متسائلاً:

- أتعرفه يا سيد؟

Telegram: SOMRLIBRARY

هزّ السيد رأسه عدداً من المرات وهو ينظر الى نار الموقد مطيلاً النظر فيها، فانتبه الرجلان الى الموقد المجمر لاول مرة، ثم الى وجه السيد الذي اكتسب مسحة غامضة، إلا ان الابتسامة الثرية ظلت مؤتلقة فيه فظل فيض الاطمئنان معتمراً في صدري الرجلين، ثم قال الرجل ذو الشارب:

- مولانا الكريم.. نحن من عشيرة آل خيون وشيخنا حسن آل خيون الذي وجدنا انك تعرفه

- يا اهلاً بكم آل خيون.. من دخل مزاري قد حلّت عليه صراحتي.

صمت الرجلان مضطربين فعاد السيد يتساءل:

- إيه.. ما هي اخباركم؟ كيف هو حال القرية؟ الشيخ؟ الرجال؟

تبادل الرجلان نظرات سريعة لا تخلو من لوعة، ثم قال الرجل ذو الشارب الكثير بجدية:

- الحمد لله ونشكره على كل حال الحمد والشكر له اولاً وأخيراً.

صمت الرجل لحظة، وسحب طرفي عباءته على كتفيه وبدا حائراً:

- لا ادري من أين أبدأ يا سيد... لكن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالسَتر عند الابتلاء.

سكت الرجل فجأة ووجهه محتقن كأنما سيشرع في البكاء؛ فتسارع السيد ليقول له:

- الله تعالى هو الذي يدفع البلاء عنكم وعنا.

فقال الرجلان معاً، وهما ينعتقان من أسر الحيرة المفاجئة:

Telegram: SOMRLIBRARY

– أمنا بالله العلي القدير.

سحب الرجل ذو الشارب الكثير جسده الى خصائص المزار كأنما ليفسح مجالاً للرجل الآخر الذي عدّل من وضع غترته وقال:

– يا مولانا الصالح.. اللعنة التي اصابتنا ما كان مثلها في عشائر المعدان. وهي لعنة غريبة اشعرتنا بالخزي والعار، حتى اخذ رجالنا يهربون اياماً وليالي خوفاً من الفتنة.

صمت لحظة وهو يسوي عقاله المائل، فيما كان السيد عنبر يُصغي وفي عينيه المكحولتين ينعكس لألاء الضوء المبثوث في كل مكان:

– وجدنا أنفسنا في حكاية قيلت مثل المزحة اولاً، ثم صارت حقيقة، فدوخت رؤوسنا منذ وقت طويل، ولا يزال رجالنا حائرين امام الاقدار هذه يتخبطون مثل السمك المزوهر.

أحسّ الرجل انه يبذل جهداً جباراً ليقف على رأس الحكاية بعينها:

– جئناك يا سيد وفينا أمل ان تمنحنا من بركاتك وتفك عن رقابنا قيد العار، فالشيخ لا يرضى بالحلول. والأجاويد تعبوا، الرجال لا يعرفون كيف يتصرفون.. ولم يبق لنا اولا واخيراً إلا الله سبحانه وتعالى وانت يا ولينا الكريم.. أكرمنا يا سيد فالفتنة ستحصد منا رجالاً ورجالاً.

تعب الرجل ذو الشارب الكثير، وكان الآخر مهيأ لأن يستطرد:

– بعثونا إليك يا مولانا فأنت الشفيع الوحيد بيننا لتكون الحكم

Telegram: SOMRLIBRARY

والحاكم.. أشر علينا بمشورتك، وتفضل إلينا لتر بعينيك حيرتنا ومصيبتنا، فأنت ولينا وسيدنا فعسى الله ان يتوب علينا.

كان السيد صامتاً وهو ينظر الى الرجلين المرتبكين، إلا انه قال متمتماً:

– نستغفر الله ونتوب اليه ونشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عليه افضل الصلاة والسلام رسول الله.

همس الرجلان بما تمتم به السيد وهما واقعان تحت تأثير حالة يفترعها الخضوع والرهبة والايمان، لكنهما ازدادا تصميماً على مصارحة السيد بشكل بدا كأنهما سيتكلمان بذات الوقت.

غير ان الرجل ذو الشارب الكثير قال لفوره:

– عفوك يا مولانا، اعذرنا، فإننا لا نعرف كيف بدأت اللعنة، إلا أننا منذ أيام قليلة فقط عرفنا.. أنت تعرف يا سيد ان بين الصدق والمذب مسافة.. من هنا.. الى هناك... مَن يقدر ان يصدق ان رجلاً في الثلاثين من عمره يحبل كما تحبل النساء..!!

ارتعش شاربه وتكاثف وهو ينظر الى عيني السيد وهما تتفتحان على سعتهما، فيزداد فيهما الوميض وتتخاطف في عمقهما الصافي شذرات الاضواء المتعاقبة، ولاحظ الرجلان ما يشبه العبوس خيّم على وجه السيد.

وكما لو ان الابتسامة التي كانت تملأ وجهه قد انسحبت وحلّت محلها تغضنات مفاجئة فترك هذا فيهما إحساساً بالاضطراب وهما ينظران الى التبدلات المعلنة والسرية في الوجه الصافن الى الموقد الذي

Telegram: SOMRLIBRARY

حفر في الوجوه جميعاً بقعاً مبرقشة ببصمات نار غير مستقرة.

– يا سيدنا الكريم، القضية تشبه الكذبة الثقيلة لكن هذا ماحصل.. رجل حبل في قريتنا لظروف ما قدرنا على تفسيرها!

تحرك السيد قليلاً يعدّل من جلسته على المخدتين فتحرك اكثر من نبع ضوء وتحرك الرجلان بشكل لا إرادي.

ثم سارع الرجل نفسه ليقول:

–... كشفت عليه مولدة القرية زهرة وهي خبيرة بأمور الحمل والولادة!

نطق السيد بالصوت ذاته الذي لم يتبدل؛ متسائلاً:

– وماذا فعل الراعي؟ هل ترك المرعى؟

اجاب الرجل نفسه بحماسة؛ دون أن يفقه ما قاله السيد:

– كل ليلة يجمع الشيخ حسن رجال القرية وأجاويدها وسادتها وخيّريها والعارفات بالسحر وقارئات البخت، لكن احداً لم يقدر ان يفسر لعنة الرجل الحامل.. كان يقول دائماً انها قضاء من الله.

وتساءل السيد:

– وماذا يقول رعية آل خيون؟

قال الرجل ذو الشارب:

– إنهم منقسمون يا مولانا.. بعضهم يصدّق انه قضاء وقدر، والبعض يرى في الامر سراً دوّخ الرؤوس، وبعض من كبار السن يلقون اللوم سراً على الشيخ حسن دون ان نعرف ما دخل الشيخ حسن بقضاء الله وقدره!

Telegram: SOMRLIBRARY

ثم سحب السيد عينيه من حفرة الموقد ونظر الى الرجلين:

- وماذا قالت قارئات البخت؟

قال الرجل الآخر:

- جنيّة.. جنيّة نفخت بطنه!

ثم اردف الرجل ذو الشارب الكثير:

- إلا زهرة.. فقالت إن الرجل حامل مثل النسوان!

نطّ سرب صغير من الفراشات وملأت رفرفته الحيز الموتور متبوعاً برنين ضوئي أليف، اعاد للرجلين شيئاً من الهدوء، وتبعثرث الفراشات على كتفي السيد وغترته ولحيته الصغيرة.

- وهل الرجل من مرعاكم وعشيرتكم وقريتكم؟ هل هو إصبع من اصابعكم؟

استفسر السيد وهو يزيح فراشة من على حاجبه.

فتبادل الرجلان نظرات عاجلة، قد تكون غير مقصودة، إلا انهما قالا سوية:

- لا..

غير ان احدهما استدرك:

- ولكنه منذ ثلاثين سنة يعيش في قريتنا

بينما قال الآخر:

- إنه ليس سوياً، ولكنه غير مخبول.. لم يكن مؤذياً..

طارت الفراشات من على جسد السيد وانتظمت في الفضاء الساطع تاركة رفرفة ورائحة نفاذة ثم اختفت بين أمواج الضوء المترادفة،

Telegram: SOMRLIBRARY

وكان السيد يتبعها بنظراته الغامضة فيبدو للرجلين ان اتساع عينيه المكحولتين عميق حقاً وانغمرا بشعور مضطرب من انهما أوصلا رسالة العشيرة والقرية الى هذا الولي الصالح الذي لم يكف النظر في الموقد وكأنه يستنطق الجمر المستعر، وربما أحسّا، بمرور الوقت، ان عليهما بالصمت فقد قالا ما قد جاءا من اجله عبر رحلة نهار بارد، غير انهما يدركان تماماً ان السيد سيلقي عليهما الكثير من الاسئلة وقد يخترق وصايا الشيخ حسن ببصيرته الذكية، فهو رجل ملهم اولاً واخيراً.

وكان هذا التصور قد جعلهما قلقين الى حد واضح، لكنهما كانا يتدرعان بقدسية المكان المنار دائماً، وبحميمية السيد الذي وجد في الجمر المتوقد مفاتيحه السرية.

هكذا كان الرجلان يفكران وهما يتابعان المتغيرات الكامنة في وجهه وحضوره إلا ان ملامح النور القدسية ظلت شاخصة في كل التبدلات التي تطرأ عليه، ودائماً ثمة الابتسامة التي تعوّد على وجهه البشير وعينيه اللتين تزدادان عمقاً وصفاء...

قال السيد وهو يخرج من عمق النار؛ فيخرج الرجلان من العمق نفسه:

– ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء..

وضع الرجلان باطن يديهما على صدريهما وهما ينحنيان بخشوع هامسين:

– صدق الله العظيم

بينما استطرد السيد بصوت رخيم تخللته عذوبة مقدسة:

Telegram: SOMRLIBRARY

– وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم إن الله غفور رحيم.

وانحنى الرجلان متأثرين ومستسلمين، كأنما سيبكيان وهما يختنقان بعبرات حقيقية.

ثم تساءل السيد عنبر ووجهه لا يعبر عن شيء واضح:

– هل بقي شيء لم تقولاه؟

انكمش الرجلان فجأة واصطدم كتفاهما وهما يسويان من عباءتيهما وغزا وجهيهما لفح حار، وكان السيد يستحوذ عليهما بابتسامته المستشرية على وجهه، فيزيد من سلامهما المهدّد لكن الرجل ذو الشارب الكثير قال بحياد:

– لم يبق ما هو مهم يا مولانا.. آل خيون يريدون من الله تعالى الستر.

قال السيد بلهجة كما لو بدت آمرة أمام الرجلين:

– حدثوني عن رجلكم هذا.. ما الذي جاء به الى مرعاكم؟

نظر ذو الشارب الى الرجل الآخر وهو يقول بتقطع:

– اسمه غُراب.. او هكذا يسمونه في القرية.. لا اصل ولا فصل له.. كنا نناديه غُراب فقط، لا ندري من سمّاه بهذا الاسم، لكن القرية تناديه هكذا.. غراب.. وبس.

قال الرجل ذو الشارب:

– تربّى بيننا دون سبب نذكره.. كان طفلاً وظل هكذا.. لا نتذكر كيف كبر..

فيما أكمل الرجل الآخر:

Telegram: SOMRLIBRARY

– ليس له أحد، ليس له والد أو أم.. وجده الشيخ حسن على جرف الشط في فجر قديم قبل سنوات طويلة، فآواه، وربّاه، وبنى له كوخاً على الجرف، وعاش كل هذه السنوات الثلاثين.. ثم صار ما صار.

ثم قال ذو الشارب:

– وجده الشيخ حسن ملفوفاً في قماط... هو نغل يا مولانا.. استغفر الله وأتوب اليه، كان في يومه الاول عندما عثر عليه الشيخ يوم كانت المشيخة جديدة عليه!

صفن السيد ووزع عينيه من جديد في حفرة الموقد المسجر وانكمش على نفسه كما لو مسّه البرد، وغمر المضيف سكون ساخن، فيما كانت الفوانيس والقناديل تخفت، او هكذا بدت في أعين الرجلين.

ومع تقادم اللحظات المثقلة بالظنون، ريثما ينجبس قرار السيد او تتواتر اسئلته، او يكتفي بهذه الصورة المخزية التي ألمت بالقرية ورجالها عن رجل انتفخت بطنه بولادة وشيكة، خارج معرفة السحرة والعرافين وقارئات البخت.

ولا يزال السيد صامتاً وصافناً على الحفرة الحمراء؛ حتى وجد الرجلان انهما داخل صمت مشوش غير محسوب، وكان السيد كما لو انه ينكمش كلما أطال التحديق في الحفرة الملتهبة، وكأنه ينظر الى شيء لا يراه احد غيره وبقيَ الرجلان ينسحبان الى دواخلهما قلقين وصامتين كأنهما ممسوسان بصاعق، وأحسّا انهما يتبعثران، وتتبعثر من رأسيهما افكار كثيرة وهما يجيلان انظارهما في فسحة السكون المفاجيء للسيد.

Telegram: SOMRLIBRARY

وعندما نطق بشيء، لم ينتبها اليه، لعله قال شيئاً لنفسه، غير ان بعض الصمت عاد يلف المكان، ويبث فيهما خدراً واستغراقاً لم يستطيعا الاستمرار فيه لاول وهلة غير ان حقيقة الصمت الذي غرق فيه السيد امام الجمر اللاصف، في هدأة الربع الاخير من الليل، جعلهما يعتكفان على صمت مُضاف ارتسمت فيه احداث بعينها امام رجال القرية في لحظات حاسمة وقاسية جعلت الشيخ حسن في دوامة من الذهول والحرج وربما العار ايضاً، وكانت الاسئلة العسيرة تنتقل بين الرجال الذين وجدوا ان الحالة مستعصية وان الفضيحة ستنتقل بين قرى المعدان في كل لحظة تمرق على وجيب القلوب الهلعة.

وفي جو يختنق بالانفاس المحبوسة والاحتمالات المعكوسة لحالة غريبة وشاذة عصفت برؤوس الرجال الذين ذادوا بكل ما يستطيعون لكبح الوهم او الحقيقة، بالتسويف والإحالات القدرية وللشيطان او الجن الذي تلبس الرجل ونفخ بطنه على هذا النحو الغريب، وفي الصمت الفائض الذي ارتآه السيد عنبر آثر الرجلان، وكانما السيد قصد ذلك، أن يحفر في ذاكرتيهما المتعبتين، ما يمكنهما من الوقوف على اي شيء يبوحان به.

في اية لحظة من لحظات العصف الطاغي على الآخرين، وهو يرتد دائماً بصداه المفجع، دونما حل او جواب، إلا صوت الشيخ حسن الذي اعيته الحيلة فكان يُردد:

هذا قضاء الله وقدره يا رجال!

وكان الآخرون مثل قطع الدغل يمتصون الاوجاع ويبتلعون الاسرار

Telegram: SOMRLIBRARY

والحقائق معاً، غير ان المولِّدة زهرة كانت على غير عادة الجميع، فهي تصرخ:

سبحان الله.. سبحان الله..

ويداهمها الصوت اليائس للشيخ حسن:

- يداك مبروكتان يا زهرة.

- لو كانت امرأة ما ترددت لحظة.. ولكنه رجل

- قد يكون الجن دخل في بطنه؟

- لا.. لا.. ما كان بودّي أن أعيش حتى هذا اليوم.. راح تنقلب الدنيا يا شيخ!

- سيجزيك الله ثواباً كبيراً.

- هذا ابتلاء من الله يا آل خيون.. أنتم لستم على قلب واحد.

- أخرجي الجن من بطنه يا عجوز

- لا.. إنه مخاض يا شيخ. وأنا اعرف ذلك.. الرجل سيلد.. قبحكم الله يا آل خيون.. يا أنجاس!!

ظلّ الجمر يتخافت وهمهم السيد بما لا يدركه الرجلان اللذان فترا، فبان النعاس يختلج في عيونهما وبدا كل منهما اكثر تعباً وإرهاقاً مع انصرام الوقت، واعتدال السيد وهو يلم جسده الفتي فكان عليهما ان يتيقنا من الابتسامة العريضة التي تفتحت في وجهه المضيء وهو يقول بصوته الذي يبعث فيهما الطمأنينة:

- الحمد لله رب العالمين على كل حال، انه لايأس من روح الله إلا القوم الكافرون

Telegram: SOMRLIBRARY

ثم اضاف:

– ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

أطرق الرجلان مصغيين، وكان النور الساطع قد أخذ يخفت حقيقة وقال السيد عنبر وعيناه تتفتحان على وسعهما:

– تأخر الوقت عليكما، والفجر قريب، ولا شك انتما متعبان.. في اول الصباح سننهض معاً.. انا سآتي معكما الى القرية لأقابل الشيخ حسن ورجال القرية، وأشوف غراب بنفسي فلا تيأسوا من رحمة الله تعالى فهي بوسع السماوات والارض؛ لا إله هو الحي القيوم، ذو الجلال والاكرام، مالك الملك، الرحمن الرحيم.

وقبل ان ينهض قال السيد:

– هناك من سيأتي معي الى القرية وسيجلب معه مفتاح مصيبتكم سيأتي بالقفل والمفتاح!

لم يفهم الرجلان ماذا كان يقصد ولم يحاولا التفكير ذلك عندما انطفأت القناديل والفوانيس وحلّت ظلمة آخر الليل.

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

مفاتيح السيد

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

تقاطر رجال قريتنا مكتنفين بالدهشة والعجب، حتى اولئك الذين اعتكفوا في صرائفهم مبتعدين عن بلوى غْراب أتوا متسترين في غلالة المساء الغائم، منقادين الى السحر المبثوث في سرائرهم وهو يقودهم هذه المرة الى رجل الخلاص ومنبت السحر الازلي الذي ترعرعت رؤوسهم على شذى شجرته الطيبة.

تقاطر الجميع، مجموعة تتلو مجموعة، محمولين على أمل ابيض في ان القادم اليهم هو ملاك رحيم، ويد كبيرة ستمسح الجراح الكثيرة وتضع حداً لمنازعتنا.

لم نصدق اول الامر ان السيد عنبر يأتي الينا بدمه ولحمه وشحمه وعندما هرع الرجال والنساء واصطخبت القرية بمقدمه كان علينا ان نصدق في نهاية الامر، فها هو بقامته الفارعة وجسده الفتي ووجهه الوضاء ينير قلوبنا السوداء ويبعث فينا القدرة على تصور ان الدنيا ما تزال بخير، وان الآخرين، مهما كانوا شيوخاً أم رعاة، هم صغار اولاً واخيراً امام الحياة المحتدمة بكل ما هو عات وقاس، ولعل رجالنا وهم يعبرون الى ضفة التفاؤل التي خطا عليها السيد عنبر كانوا اكثر اشراقاً

Telegram: SOMRLIBRARY

وبهجة، برغم ما ألمّ بهم من يأس وضنك وحيرة، غير مصدقين، اول الامر، ان هذا الولي الصالح يطأ قريتنا بنفسه من اجل بلوى غريبة افسدت ايامنا وزرعت الشك في نفوس اهلنا من الرجال والنساء.

لكن هذا ما حدث حقاً، ها هو السيد الجليل يأتي الينا في نهاية المطاف، يترك مزاره ويقدم بنفسه قاطعاً تلك المسافة البعيدة لهذا الامر الذي تغمره الاسرار بلا شك.

ومع تقادم الظلام اكتظت دروب قريتنا بالناس الذين انبثقوا من كل كوخ وصريفة، حتى بدا انهم اكثر من نخلنا الواقف تشدهم قوة مهيبة الى رجلنا المهيب، كانوا مضائين بالجمر والمشاعل والفوانيس فتركوا ليلهم وتسابقوا الى قدر جديد جاء به سيدنا العظيم الى مضيف القرية والعشيرة، والذي لم يستوعب حشود الرجال، لكن الشيخ حسن ورجاله ظلوا يشعلون المزيد من اللوكسات والفوانيس وحرصوا على إدامة الموقد الذي يتوسط المضيف بالكثير من القصب والمطّال، وكان الشيخ آل خيون مأخوذاً بهذه الخطوة التي حملت السيد الى قريتنا ومضيفنا وبين رجال عشيرتنا.

وعندما تفرس بزحام الوجوه، هاله الزحام والاكتظاظ، وهو في شدة ارتباكه كان يأمر رجالنا بأوامر متقاطعة احياناً، بينما اخذ المزيد من رجال القرى المتجاورة، وقد أنبأتهم ريح سماوية بالوصول الى المضيف حريصين على رؤية السيد وتقبيل يديه الاثنتين والتبرك بمرآه المقدس وانتظار فتواه، هذا الولي الأمين، الذي جاء بنفسه؛ عابراً نهاراً بعيداً، طواه، كما تطوي العين إبصارها الخاطف.

Telegram: SOMRLIBRARY

وكما أكده الرجلان المبعوثان، اللذان قالا ان المشحوف كان يطير فوق الماء وفوق القصب، يسبقنا السيد بمشحوفه الآخر، ومعه امرأة مغطاة بعباءة، بدت لنا وكأنها طيف ليل حرص السيد على جلبه معه لغرض لا ندريه.

كان الرجلان يقولان ان السيد كان يجذف بيديه القويتين ويحلق كما تحلق الطيور في السماء، وكان طوال الدرب الطويل، يناغي نفسه مناغاة غريبة، ومرتين سمعنا المرأة المغطاة بالعباءة تبكي لكن السيد كان يقول لها شيئاً فتسكت راضية، ولم نتوقف إلا مرة واحدة في إيشان عارض صلينا فيها مع السيد المبارك صلاة بدت طويلة؛ وكانت الدموع تنساب من عينيه الواسعتين وقرأ آيات من القرآن الكريم بصوته الآسر الذي لا يُنسى فامتلأ الإيشان بالزنابق والدفء والرائحة والطيب.

وسكنت المياه، إلا من صوته الذي ملأ الآفاق بدعاء كريم، وكانت دموعه تهطل كالمطر، فأبكانا معه، وأجهشت المرأة بحرقة، وهي لما تزل في صدر المشحوف، ثم واصلنا المسير وكأننا في حلم اخضر عابرين الهور والمسافات البعيدة كما لو كنا محمولين على جناحي طائر كبير لا نراه، وقد حرص سيدنا ان نصل في اول المساء وهذا ما حصل امام دهشة الشيخ حسن ورجالنا الذين عصفت بهم رعدة باردة، وانتابهم فرح حقيقي وقلق بيّن وبالذات شيخنا الذي احتضن السيد وقبّل يديه وقاده الى صدر المضيف؛ محتفياً بهذه البركة التي شرفت القرية وأهلها متمتماً بكل ما يحضره من كلمات تليق بولي

Telegram: SOMRLIBRARY

من اولياء الله الصالحين. ومثله اصطف رجالنا وقبّلوا يديه وانحنوا له اجلالاً واكراماً، وتبركوا برؤيته، إلا النساء فقد بقين متحسرات امام عتبات الاكواخ يقضمن الاصابع تشوقاً لمرآه المبارك وإطلالته البهية، يا سيدنا ومولانا وولينا وصاحب الخطوة المباركة علينا انقذنا من هذا الهم وخلص رجالنا من العار والخزي، واشفع لنا عند الله عزوجل، ان يقبل توبتنا ويهدي قلوبنا الى ما فيه خير الاعمال إنه هو السميع المجيب.

احتشد المضيف بأكوام من رجالنا ورجال القرى المجاورة، وتفرق آخرون حول الخصاص من الخارج، حيث البرد والظلام الذي بقرته عيون الفوانيس وأذرع السعف اليابس، وشكلوا سوراً يعقب سوراً متقرفصين، منصتين الى ما سيقوله السيد وهو يحضر البلوى ليكون شاهداً على فجور شنيع حلّ بنا؛ ويكون حَكَماً على فعل شائن حلّ برجل لم يكن مخبولاً ولا عاقلاً، لكنه ما يزال نغلاً لا نعرف والديه ولا عشيرته سوى ان شيخنا آواه ورباه وابتنى له كوخاً على جرف الشط، كان ذلك قبل ثلاثين سنة، يوم كان حسن آل خيون فتياً وجديداً على المشيخة.

رفعت المخدتان قامة السيد المهيب فأطلّ على الحاضرين بعينيه المكحولتين الواسعتين اللتين يتراقص فيهما بريق غريب من وميض اللوكسات والفوانيس، واسبغ بنظراته وهو يجيلها بين رجالنا مشيعاً جواً من الثقة والدفء واحكم صمتاً مقدساً في الصدور والانفاس، وظل ألق حضوره يطغى على كل شيء بما في ذلك الشيخ حسن الذي وجد نفسه بلا شك يتضاءل امام السيد عنبر غير ان الصمت لم يدم طويلاً اكثر مما قدره الملاك القادم إلينا، إذ قطعه قائلاً بصوت

Telegram: SOMRLIBRARY

لن ننساه ما حيينا:

– قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

انحنت حشود الرجال وطأطأت الرؤوس. ووضعت الأيدي على الصدور، واحتشدت تمتمات كثيرة إلا انها سرعان ما توقفت ليقول السيد بعدها:

– يا آل خيون.. هل تقبلونني حَكَماً؟

اختلطت الاصوات فجأة، وهوّمت الأيدي مباركة هذا الرأي، وفلتت من الرجال كلمات كثيرة: أنت سيدنا ومولانا، شرفت القرية ومن فيها، من غيرك يا سيد عنبر، أنت الحكم والحاكم.

فاشار السيد بيده شاكراً رجالنا الموتورين، وكأنهم يجلسون على جمر كثير، بانتظار اي شيء يقوله الولي الذي عبر إلينا من اقاصي الهور، اي شيء سيردم الفتنة التي جاء بها بطن غراب نصف الرجل، نصف العاقل.

وحين استتب الصمت ثانية، هدر صوت السيد عنبر:

– الخير فيما اختاره الله يا آل خيون، ورحمة الله بوسع الهور ومن فيه، لكن الانسان، لكن الانسان...

أجال النظر من جديد في الوجوه المحنطة، وتخاطفت عينا الشيخ ملتمعتين بوهج الاضواء، متحاشيتين الإطالة في النظر الى عيني السيد المتوقدتين دائماً:

– لكن الانسان لا يشكر الله كثيراً، لانه أناني ومغرور منافق

Telegram: SOMRLIBRARY

ونعوذ بالله من كل الصفات الذميمة، وجنبّكم الله كل صفة قبيحة..

قبعت المرأة خلف ظهر السيد متكومة تحت عباءتها وبدت كأنها صرّة صغيرة وهي تلقي في نفوسنا ظلاً من الاسرار الصعبة التي لم يشأ احد منا ان تبقى هاجساً ملّحاً في هذه اللحظات الاخيرة التي يشغلها سيدنا ومولانا بكلامه الذي ابتدأ وهو دائم النظر في عيون رجالنا، لا تستقر عيناه على واحد بعينه، كانتا مثل خرزتين تدوران وتلاحقان العيون والوجوه والإيماءات، وكان صوته الذي لا يُنسى يحفر فينا رهبة وقدسية:

– مَن كان على حق فليشلع حقه من عيوني..

تحرك السيد قليلاً فغطى جزءٌ من عباءته جزءاً من الصرة المتكومة وراءه:

– ومَن كان على باطل؛ عليه ان يتدبر أمره معي هذه الليلة، والله تعالى غفور رحيم.

اختلط وميض العيون في لحظات مرتبكة، ودارت الرؤوس كما لو شغلها شاغل طارىء، وربما همهم اكثر من رجل بشيء ما، وثمة من صاح: أظهر لنا الحق يا مولانا.وثمة من اغلق فمه متقصداً وهو مرتاب بما ستؤول اليه الامور.

وظلّ السيد متفتح الوجه، ينعكس عليه لهب الموقد وهو يزداد حضوراً امامنا بكل شيء، بشكل جعل قلبونا تستسلم اليه:

– يا آل خيون، من كان منكم على حق فليغادر المضيف.. ومن كان منكم على باطل فليطلع مع الطالعين؟

Telegram: SOMRLIBRARY

لم يكن وجهه حاسماً في هذه اللحظة غير اننا وقعنا جميعاً في الذنب مرة واحدة!

فاختلجت قلوبنا وتناوبت عيوننا في النظر اليه والى الشيخ المتكور على نفسه، ثم الى الصرة المتكومة خلف ظهر الشيخ عنبر واللغز الكامن في ما قاله مولى قرانا وعندما تأملنا عبر شعاع الموقد المشتعل دائماً، لم نجد في وجهه ما هو قاس الى الحد الذي طلب من الجميع الخروج من المضيف، من كانوا على حق ومن كانوا على باطل، وعندها تراصف رجالنا متداخلي الاكتاف.

يتقاسم النور بعضهم وتتقاسم الظلمة الساقطة بعضهم الآخر إلا وجه السيد، فقد حفّ به النور من كل جانب وتعاقبت على قامته الجالسة انوار الفوانيس المتشابكة وهي تحتشد باتجاهه.

– مَن كان على حق فقد خرج، ومن كان على باطل فقد تبعه، وسبحان الله الواحد العادل.. يا آل خيون الداخل خارج حتى ادعوه والخارج داخل بإذن الله العلي القدير.

هل نهض السيد؟ أم ان قامته تسامت وتورد وجهه؟ لم يكن هناك من كان غافلاً بيننا، فالجميع مستوفزون يتربعون على جمر لا يكف عن الاشتعال لحظة واحدة والسيد يخطو بيننا حتى ان قامته العملاقة حجبت نوراً كثيراً، تخفّت خلفه عشرات من الوجوه، وكأنما غيمة شقت سقف المضيف وجثمت على نصف الحاضرين.

ثم توقف امام الموقد واطال النظر في لهبه المتعالي، وقال كما لو كان في حلم:

Telegram: SOMRLIBRARY

– لو قايضتني بأصابعي لقبلت، بل سأعطيك وجهي طعاماً وشراباً، وأمنحك كل جسدي، لك طعامي وشرابي وثيابي وذريتي ونسائي وما أملك. اهبك سنوات عمري ما تقدم وما تأخر وما ظل مكتوباً في لوح القدر؛ لك نصفي وكلّي وكل كلّي، ولكن... عديني بقطرات من المطر، امسح العار فيها عن وجهي وأبلّ بها ريقي، عديني إلى ذلك اليوم الذي لا اتمنى ان اراك فيه، أما الآن فأنطفئي.

وبعد ان وضع السيد قدمه اليمنى في موقد النار خامرنا شعور غريب ليس بمقدورنا السيطرة عليه. كان مزيجاً من الرهبة والخوف والذهول، وقد هيمن علينا صمت جنائزي لايوصف، وتلاشت قلوبنا ونحن نرى قدم السيد تسحق الموقد وتفتت الجمر وتتضاءل الألسنة حتى تتوارى لحظة بعد لحظة ثم تماوج جسده خافقاً منسحباً الى حيث مركنه البارز والمرأة المكتومة وراءه فانسحبت الغيمة والتصقت بالسقف، وكان من السهل علينا ان نرى دمعاً يلتمع على خديه المتوردتين تحت انوار الفوانيس الكثيرة.

لم تكن قطرات وحسب، إنما كانت فيضاً متلاحقاً أبكى حشداً من رجالنا المنبهرين والمكتومي الانفاس، والذين وجدوها فرصة لإزاحة العَبرات المنسية في ادغال الروح والصدور وكان ما نراه خارجاً عن قدرتنا في تصور ما يحدث، برغم ان لسيدنا حظوة في صدورنا وقلوبنا وإيماناً قاطعاً بسلامة افعاله المثيرة التي نسمع عنها الكثير مما تقوله قرى المعدان في كل الاهوار.

وعندما انقطعت دموعه، انقطعت دموعنا، اخذت عيوننا تشخص

Telegram: SOMRLIBRARY

الى وجهه المكتنز، وحين شبك اصابع يديه وطقها مرة واحدة.

قال فجأة:

– بخ بخ عليكم يا آل خيون. ركبتم العثرات ونسيتم انكم ريشة بين اصبعيه.

ثم قال وهو يمسح بللاً عالقاً على طرف لحيته الصغيرة:

– آخ من جمرة العمر، وخاتم السنين. يا ويلي على حياة فانية وموت محتّم ونشور اكيد.

إلا ان البلل اخذ يزداد وظل مجرى دمعه سائباً وقتاً ثميناً تقلبت فيه ألوان وجهه، وتداخلت فينا لحظات مريرة من الصمت والانتظار والمجهول، إلا انها لحظات معبرة عن الحضور والفتنة والتجلي الحميمي لمرآى السيد وما يقوله.

وإذا ما حظي رجالنا في المضيف بالوقوف بين يدي السيد عنبر فان الآخرين، خارجاً، تشكلوا كأسوار بشرية حول خصاص المضيف وتسللت عشرات النساء يحملن المشاعل والفوانيس تحت برد ثقيل وظلام دامس ينصتن بأعصاب مشدودة الى كلام السيد ويبعثن الصبيان ليندسوا بين الرجال لرؤيته هو بلحمه ودمه، بوجهه المنير وجسده العملاق،إلا غراب فقد تخلى عنه الجميع وظلّ وحده في كوخه المنعزل، يُقاسي الألم والوحدة والبرد والظلام والطلَق!

وعندما تحيّن فتوى السيد، لا ندري كيف ستكون عاقبة الامور، فهل الرجل المهيب الذي حضر بنفسه الى قريتنا لابد ان يقرر اي شيء، امام المرأة المغطاة بعباءتها وهي تركن خلفه كصرة مطعوجة.

Telegram: SOMRLIBRARY

لا نعرف ما حكمة السيد بها وهو يجلسها خلف ظهره على هذه الهيئة الغامضة التي تبعث الاسئلة تلو الاسئلة في ليلة سعيدة وعصبية وغريبة، ولكنها لابد ان تنتهي بوصية سحرية من السيد الذي اختلفت ابصارنا في النظر اليه قائماً او قاعداً او يدور حول نفسه، او يسأل ولا ينتظر جواباً من أحد وكان يُطيل النظر، كما رأينا في مرات عديدة، الى الشيخ حسن، ثم يناغي المرأة المضمومة في العباءة:

– ما كانت الشهوة خطيئة يا ابنتي، ولكن الخطيئة شهوة دائماً وابداً، الشهوة زنبور قد يلدغ حامله يا طفلتي، خرجت من السجن الى السجن، وسيتوب الله عليك لتعودي سجينة ايضاً، لابد ان تقبلي قدرك وسعينيك الباري المعز المذل... فالخطيئة الاكبر ان لا نثق بعدالة العادل الواحد.

وتهاوى الى امامها مُستديراً إلينا بوجه غارق بالدموع، وكان رجالنا قد بلغوا قمة التأثر الحقيقي وهم يشاهدون السيد يقول كلاماً غريباً ويبكي صامتاً، ولعلنا الآن تيّقنا من ان تلك الصرة هي امرأة حقيقية تماماً حين كلمها السيد باكياً وهي تختض وتنشج، وبينما كان الصمت يهيمن من جديد كان النشيج المحموم لتلك المرأة وحده يتضخم، وفي الوقت الذي حاولت فيه ان تكبح نفسها عن البكاء كانت تنفجر فجأة ببكاء اكثر مرارة وحنجرة مشروخة بألم مزمن.

وحينما ظل السيد متمسكاً بالصمت، بدا لنا كأنه يؤذن لها بذلك وعيناه تتنقلان في وجوهنا الواجمة، ثم يطيل النظر الى الشيخ حسن المتضائل بعينين مجمرتين.

Telegram: SOMRLIBRARY

كان علينا وقتها أن نفهم شيئاً ما يوصلنا الى ما هو غريب في هذه الليلة الباردة التي اخرجت قريتنا كلها مبتهلة بقدوم هذا الولي الزاهد الذي طرّت شهرته الآفاق وتعدته الى الصحراء المتاخمة لنا عبر مئات الفراسخ من الماء والقصب والبردي لكن ما كان هناك شيء في هذا اللهاث الذي خنق الصدور وترك العيون في غشاوة من الضباب، وظلت المرأة تنشج.وكان نشيجها يتخافت ويذوب ويتحوّل الى أنين وحسرات مضيئة، ثم الى صمت مُطبق قال السيد فيه:

– لا تقصوا اظافركم كثيراً، ولا تطيلوها، وخذوا بين ذلك سبيلاً، فجلودكم يا آل خيون تحتاج اليها، وظهوركم لا تقوى على حمل اية خطيئة، وما هذه اول عين بكت ولا آخر عين، ولا تظنوا أن غُراب ولد مرة واحدة، بل ولد عدة مرات وسكن ارحاماً لا تُحصى، وهو دائماً يولد في كل يوم من ايامكم الفانية، لان الخطيئة موجودة والزنابير تلدغ حامليها، فعسى الله جل شأنه ان يتوب عليكم، وعسى الله ان يقويكم على زنابيركم حتى تتجنبوا المعصية وتنالوا رضاه.

حتى في صمته كان حالة لا يمكن ان تُنسى، كان يملأنا بالرهبة والاطمئنان معاً، لم يتفوه اي رجل منا ولم يصدر هناك ما يشير الى أن أحدنا يريد أن يقول شيئاً؛ حتى الشيخ حسن المتضائل، ليس بوسعه ان يقول شيئاً امام هذا الكلام الغريب الذي لم نعرفه من قبل. لكنه كان كلاماً خالصاً وصلت الينا مراميه ؛ برغم غرابته، ودوّخ رجال العشيرة وأحكم عليهم سكوتاً لابد منه، وما كان السيد يعود الى مجلسه إلا ليقف ثانية، او هكذا اخذنا نتصور.

Telegram: SOMRLIBRARY

وكان كل شيء فيه يفصح عن شيء ما لم نكن قادرين على الامساك به ولعلنا بقينا مأخوذين بهذا الرجل المعروف وفي رؤوسنا مشكلة القرية: غراب الذي اصبحنا على فضيحته وامسينا بالشكوك والاحتمالات والقدر المخزي الذي هزّ القرية والعشيرة والرجال، وظلّ السيد يُطيل التفرس في الوجوه المحنطة. فيما كانت الريح الباردة تصطدم بسقف المضيف فتترك عزيفاً كأنه أنين مُتصل، وظل الليل يتقادم في وقت يمر كاتماً علينا الانفاس، وبانت القرية كأنها داخل سرادق طويل من الصمت المحفور وهو صمت ربما كنّا بحاجة اليه، بعد ايام العذاب الطويل بما تركه فينا (غراب) من هواجس متقاطعة ومشاعر غمرتها الفُرقة وملامح فتن كادت تأكلنا والله، لولا ان الرب منَّ علينا برجل عظيم حفظته قلوبنا، واستسلمت لمرآه نفوسنا دائماً وابداً.

وقبل هذه الليلة بأزمان توارثناها جيلاً بعد جيل؛ محتفظين بحكمة السلف الصالح، ومُنقادين خلف رماد الوصايا المتوالدة عن وصايا في رواق العمر العسير ومصائبه الكثيرة؛ ولولا ان السيد الفاضل كان يرغب بإطالة النظر الينا لفعل ذلك حتى الصباح، لكنه كان مُنشغلاً بأمور جليلة لا شك ويستجلي من الوجوه ما يريده. وكانت شفتاه تنطقان بكلام صامت، تتوقفان لحظة منطبقتين ثم تعاودان الكلام الصامت، ومع الوقت الذي بدا لنا طويلاً، وربما هو ثقيل ايضاً، تحرك الرجال الذين يتكومون في مدخل المضيف.

انزاحوا عند الباب الخشبي ليفتحوا ممراً صغيراً لصوت مرتعش قادم من الظلام، وكانت زهرة العجوز مولّدة القرية الوحيدة، هي القادمة

Telegram: SOMRLIBRARY

الى داخل المضيف، كانت تهذي بصوت مسموع.

نظرنا اليها وهي تخطو، محدبّة الظهر، فاجأتها أضوية الفوانيس فغشيت عيناها الكليلتان، لكنها ظلت تتمتم:

- اللهم صلّ على محمد وآل محمد.

فقادها اكثر من رجل الى اي موضع كان، لكنها رفضت، وكانت تهذي بصوت عال:

- لا يشرفني هذا المكان لولا مولاي وسيدي حاضر هنا.. وين السيد؟

وكانت تتعثر في الحصران المنكمشة، فنهض اليها السيد:

- تعالي يا عجوز الخير.

وحين صار قريباً منها، تكومت عليه وهي تنشج وقبّلت كلتا يديه، فقبّل رأسها وهو يحتضنها:

- تعالي يا أمي، أنت الشرف والرأس..

وكان يسحبها الى حيث فسح لها مجالاً الى جانبه، بجانب المرأة المغطاة كالصرة، وكان السيد اكثر الحاضرين اهتماماً بمولدتنا القديمة، وربما اكثرهم اهتماماً بها.

كان يتحول من حال الى حال، بدا اكثر ليونة وعاطفة وكانت العجوز تهذي، وهي تشتم رجال المضيف، كعادتها دائماً، حين تدخل الى هنا لسبب ما، وبعد ان تربعت ظلت يدها العجفاء ممسكة بيد السيد وهي تقول أدعية متلاحقة وتنظر الى وجهه المتفتح وتصلي على الرسول الكريم بين لحظة واخرى.

Telegram: SOMRLIBRARY

وكان السيد لصيقاً بها كما لو انه عثر على بشارة ما، احتضنها عدداً من المرات وقبّل رأسها، وعيناه تومضان بالدموع، بدا السيد اكثر سعادة من كل هذا الوقت الذي مرّ وهو يسترخي الى جانب العجوز ويبتسم لسبابها وهذياناتها المترادفة، وقد ذكرت الشيخ حسن آل خيون ثلاث مرات واتهمته بما لايليق به أمام السيد ورجاله من العشيرة غير ان الجميع يعرفون طبعها الشائخ ولسانها الباشط، وكانوا يقابلون ذلك بالضحك الذي اخرج عن صدورهم هذه اللحظات الموتورة، ولعل الشيخ حسن وحده الذي ظل مضطرباً لكلام العجوز المتغضنة غير انه استسلم لوطأة هذه الرغبات اولاً واخيراً، فيمت واصلت العجوز:

– عشنا وشفنا يا سيد.. لكن ما شفنا مثل هذه المصيبة؟

سحب السيد نظراته منها وتوجه الينا قائلاً، وكان يكلمها عبرنا:

– وراح تشوفين الأّمرّ يا أمي، عيشي وشوفي، الله يطول عمرك.. الملح فاسد يا عجوز الخير، والنخلة ظلت مهجورة وطلعها ذابل؛ ثلاثون سنة والطلع يأكل به الدود وبني آدم ما يروح إلا عريان، فوقه غلط وتحته غلط، ويا ويله من المعاصي والكبائر والفجور، عيشي وشوفي بعد يا زهرة؛ القبر يضم الملوك والعبيد والسادة، تراب فوق تراب، الانسان تراب اولاً واخيراً، والدنيا عجينة معجونة.

استشاطت العجوز وهي ناشجة:

– كيف نواجه الله؛ بأي وجه يا سيد؟ وهذه الشوارب كيف تواجه الواحد الاحد... وبطونها منتفخة بدلاً من النسوان؟ عشت

Telegram: SOMRLIBRARY

عمري وانا ادور في بطون النسوان.. يا زمن هذا الخلاكم تحبلون؟ تفووو...

وعندما بصقت زهرة في وجوه الرجال كفّت الوجوه من الاسترخاء، ومسح الشيخ حسن آل خيون رذاذاً طافراً على شاربه وهو يبتلع، كما الآخرين، هذه الاهانة الفادحة بينما وضع السيد يده على كتفيها النحيلتين وهو يهدّىء منها، إلا انها انخرطت بالبكاء. ثم خفّت بكاؤها بلحظات سريعة، عندها وقف السيد بكامل طوله، وطلب من المرأة التي تختفي وراءه بعباءتها ان تقف ففعلت دون ان تصدر صوتاً، ونهضت العجوز، وتلقائياً نهض الشيخ حسن وهو في اقصى لحظاته وهبّ الجميع واقفين، وكان من الواضح ان الاكداس البشرية التي تسوّر المضيف من الخارج قد وقفت هي الاخرى تحت الظلام والبرد والمجهول.

وفي داخل المضيف اصطدمت ظلال القامات ببعضها وتحركت حزم الضوء المنبثة من الفوانيس قلقة، فتشوش المضيف بالظلال المتقاطعة والانوار التي لا تستقر على حال.

وكانت حشود رجالنا امام حالة مُبهمة، فما قال السيد حلاً واضحاً، ولا قال كلاماً يشير الى انتهاء الفتنة، وعندما اعتدل وسوّى من عباءته الصوف، كانت العجوز تمسك بيده اليسرى وعيناها ترمشان بسبب الاضواء التي أنزلت من السقف.

واحتشدت امام السيد الفاضل الذي كان يتعملق امامنا ويزداد بهاء في نواظرنا، لكننا لم نكن واثقين بعد، فالسيد غامض وصعب

Telegram: SOMRLIBRARY

ومتحول، اجل، انه متحول، ولكنه لا يتبدل على كل حال!

قال امام الوجوه التي شكلّت دوائر مُتداخلة حوله:

– من الحكمة ان يكون رأسكم حكيماً؛ وإلا فعلى الرعية السلام، تعال يا شيخ حسن؛ ورثت المشيخة وما عدلت وإني اسألك الآن أمام رجالك من اين تأخذ الحكمة؟ من العجوز هذه؟ أم من غراب ضحيتك؟ هل الحكمة تأتي من الخطيئة؟ أم تأتي من التبّصر؟ فإذا قلت لي من الاولى فانت لا تصلح إلا ان تكون راعياً تقود قطيعاً من البقر! وإذا قلت من الثانية، فما بالك في الاولى؟ إذ كنت راعياً فإنك خربّت المرعى؛ ثم حرثت في غير مرعاك؟ فارتكبت الخطيئة، تعال يا شيخ حسن، تقرب مني، فإني والله مُصلح لك مرعاك، وآخذ بيدك الى ثمرتك، نخلتك المهجورة فما جدوى الدموع تسفح من أجل لحظة غابرة.. سنخرج جميعاً الى بلواكم. ونرى، فعسى الله يلهمنا الحكمة ويعيننا بإرجاع الراجع الى مرعاه..

اخذتنا رجفة باردة. كانت عينا السيد وامضتين بما هو غريب، وكان الشيخ حسن يخرج لاول مرة من حلقة الرجال منكسراً ومضطرباً، ويقف بين يدي السيد مأخوذاً ومنصعقاً، بدا انه يلوذ بسر لا ندريه.

بدا انه محتدم اكثر مما يجب، مما زرع فينا هواجس كثيرة، وشغلنا مرأى انكساره مشغلاً فائضاً بالألم الحقيقي، برغم اننا لا ندري ما الذي كان يرمي اليه سيدنا عنبر.

لكن الشيخ حسن آل خيون انهار تباعاً وتضاءل امامنا بشكل لا مثيل له، فراعنا ان نكون غافلين ومغفلين لقضية تبدو من الخارج

Telegram: SOMRLIBRARY

ان القدر سواها، ولكن كلام السيد وانهيار الشيخ وبكاءه المصحوب بالزفرات.

قلَبَ الصورة امامنا وداخلنا بما كنا ننتظره من شفاء أخير في ان تعود قريتنا الى ايامها الخضراء، وامام الحيرة التي اكتنفت الجميع والصمت المخيّم على الحشود، كان نحيب الشيخ حسن يؤذن بحكاية غريبة وغامضة افرغت ما في رؤوسنا من توقعات واحتمالات كنا نرسمها حتى يحين حينُ السيد عنبر.

وهكذا كان النصف الاول من الليل ينطوي وتنطوي معه حساباتنا المختلفة، ويشرع وقت آخر مضاء بفوانيس اخرى ومشاعل صغيرة ولوكسات وهاجة ودورة مجهولة يقودنا سيدنا ذو البال الطويل والصبر الطويل وهو يحفر باصابعه في جبل جثم علينا وقتاً لا نعرف سنواته وفصوله، وعندما عاد كل شيء الى هدوئه، وخفّ نحيب الشيخ تطلّع السيد بعينين ثاقبتين ووجه لم نقدّر فصاحة ملامحه:

- يا آل خيون، لم يبق للفجر إلا وقت قليل، وما ظل عندي شيء لأقوله. الحمد لله الذي سيؤلف بين القلوب... الحمد لله قابل التوب وغافر الذنب ولا اله إلا هو الجبار والآن يا رجال آل خيون سيدلنا الشيخ حسن على موضع الخطيئة الحقيقي، ونذهب معاً جميعاً، الى كوخ غراب الذي وقعت عليه الخطئية واجتمعت في بطنه الخطايا والآثام، سنذهب الآن، ونرجو من الله العلي القدير ان يمدّنا بالحكمة والعون والبصيرة..

اختلط فينا الخوف والامل معاً، وكانت قلوبنا تحفر فينا نبضاً

Telegram: SOMRLIBRARY

متسارعاً وكان من الصعب علينا ان نفهم ما الذي يجري في حقيقة الامر الا ان ليلنا الوشيك على الانتهاء سيدلنا على موقع الخطيئة التي آلمتنا ودقّت بيننا سيفاً من العداء المستتر؛ لكن ها هو السيد يتفتح من جديد بوجه نضر يشع في اضواء الفوانيس ويتحدث الى الشيخ حسن بكلام خفيض.ثم يعود يهمس شيئاً في اذن المرأة التي التفت بعباءتها كل الوقت، ويده تمسك بالعجوز المحدبّة ثم يتحدث الينا متبشراً عن جنة الله الفسيحة الى عرضها السماوات والارض.

وطفق يقول اشياء اخرى غريبة فيّضت فينا عاطفة خاصة وزرعت في الظلام البارد ثمرات من الضوء وقطوفاً دانية، ظل يتحدث عن اي شيء، الشمس التي تهبط يوم الحساب حتى حاجب العين والكواكب الاحد عشرة على باب جهنم وهي تمسك زفرتها الرهيبة حتى لا يحترق ما بين السماء والارض. تحدث لنا عن حُجب النور الثمانية عشرة والملائكة الذين بعدد الرمل العالج وقطر المطر واوراق الشجر وبعدد ايام الدنيا، وقال شيئاً عن آيات النبي موسى التسع ونساء النبي داود التسعين وعن آدم الذي ليس له عشيرة. وارض البحر التي لم تطلع عليها شمس إلا مرة واحدة، وهي ارض البحر التي فلقها موسى بعصاه، ثم عن سدرة المنتهى في السماء السابعة التي يمشي الماشي تحت ظلها مئة عام وعن اشجار الجنة التي لم ترها عين، وشجرة يونس التي نبتت من يقطين، وعن النحل الذي لا هو من الجن ولا هو من الملائكة، والنخلة التي لا يأكل منها إلا الصالحون وموائد الجنة التي لا تختلط ألوانها أعُدت للصالحين فمثلهم في الدنيا مثل الجنين في بطن

Telegram: SOMRLIBRARY

أمه فإنه يتغذى من سرتها ولا يبول ولا يتغوط ولا يجوع، ثم تحدث عن اشياء لم يحبل بها رحم، وكان بذلك يشير الى عصا موسى المصنوعة من عوسج الجنة وكبش ابراهيم، وناقة صالح.

قال اشياء كثيرة عن اقفال السماوات ومفاتيحها، والحور العين الأتراب، والقصور المشيدة، ومنازل الناس فيها وقال ما قال عن جهنم وابوابها وخازنيها والعذاب الذي أعُد للكافرين والمنافقين ومرتكبي الكبائر، والجلود التي تشوى وتُستبدل ثم تشوى، وذكرّنا بعذاب الله وعقابه، بحيث لجم الافواه وحنّط الاجساء الواقفة.

كان متدفقاً وكبيراً وهو في حالة من حالات التجلي البارع والوجد الانساني الحميم، واستضاء المضيف بنور مقدس وهالة خضراء حفّت بنا جميعاً.

كان الجميع واقفين بانتظار السيد. وكان الليل يتصرم سريعاً، ثم خطا اول خطوة فانفتح امامه ممر يقود الى خارج المضيف، فتسارع حاملوا الفوانيس واللوكسات ينيرون الظلام امام السيد فتصادمت الاكتاف وامتزجت الظلال وهبّ الآخرون ممّن كانوا خارجاً طيلة الليل؛ شالوا قاماتهم المنكمشة تحت البرد، وأوقدوا المشاعل والفوانيس ورؤوس السعف اليابس.

خرج السيد مصطحباً العجوز، مولدة نساء قريتنا، ووراءه تدرج امرأة العباءة والى جانبها الشيخ حسن الذي كان حريصاً عليها، ومان لما يزل مرتبكاً، خجلاً، في حين بقية الرجال يطلعون من باب المضيف تحت انوار مكتظة كإنما ينعتقون من محبس وكانوا يشكلون

Telegram: SOMRLIBRARY

طوابير وحشوداً تقف خلف الرجل العملاق الذي لاح للجميع انه رجل منير بحق، كان يغطي جسده الفارع بعباءة زرقاء مبطنة بصوف، ويعتمر غترة زرقاء.

خرج معهم الى الريح الباردة، في موكب مُنار، وظلت حركة الناس تثير اللغط وتجتذب المزيد منهم حاملين اللوكسات والنيران المرتعشة، كان ليلاً مطبقاً وبارداً، ونحن نصطف على درب محفوف بالنخل مُغطى بالقش وقشور الشلب والبردي المسحوق، وهو درب يتعرج بين الاكواخ، وتبدت للسيد في موكبه الاثير وجوه كثيرة التمعت الى جانبيه وعباءات تخفق واقدام جاهدة تنضم دائماً الى رجال القرية والعشيرة وصلوات لنساء هجر النوم عيونهن هذه الليلة، وها هن يتباركن بمرأى سيدنا ومولانا الذي يخطو على ارض القرية بلحمه ودمه، متجهاً الى موضع الخطيئة كما قال الى كوخ معزول على كتف الشط، حيث (غْراب) المنتفخ البطن وولادته الوشيكة.

وبالقدر الذي كان فيه الايمان طاغياً علينا بان السيد عنبر ما جاء الى قريتنا إلا ليفك رقابنا من بلوانا. كان يخامرنا شعور بالخجل من ان هذا الرجل الكبير قد وضعناه امام عمل قبيح، وحاصرناه في فضيحة مستعصية، لا يريد احد منا ان يصدقها ويتعامل معها كحقيقة وقعت بارادة الله جلت قدرته فحبلُ رجل نصف عاقل ونصف مخبول، وهو رجل ألقت به ظروف لا نعرفها، نغلاً ذات فجر على كتف النهر، وعاش سنواته الثلاثين معزولاً ومنعزلاً ووحيداً في كوخ من القصب بناه الشيخ حسن آل خيون في اول مشيخته الطويلة.

Telegram: SOMRLIBRARY

لكننا سوف نبقى خلف السيد، فهو مخلّص القرية الاخير؛ سنسير وراءه الى ما يراه هو، مغمضي العيون الى حيث يبزغ قدر آخر اقل وطأة واكثر وضوحاً في موقع الخطيئة الاول او في اي موقع تكتشفه بصيرته النافذة ورؤيته الغريبة وعدالته التي لا نشك فيها لحظة واحدة، وامام بقية الليل اخذ الدرب يتعرج دائماً في حدبات الارض، صاعداً او هابطاً. والقرية تشتعل بأسرجة شتى، وكان الكثير من الرجال يتناوبون في الوصول الى السيد ذاته لتقبيل واحدة من يديه، وثمة النساء يدفعن بأطفالهن وصبيانهن ليلمسهم السيد وهو يسير صامتاً مُمسكاً بيد العجوز الحدباء ووراءه المرأة الملفوفة بالعباءة والى جانبها الشيخ حسن آل خيون الذي كلمها بعضاً من المرات..

ومن ورائهم رجال القرى الاخرى الذين كانوا يتوافدون طوال الليل حاملين معهم انواراً براقة، حتى بات لمن يرى قريتنا من بُعد وكأنها تشتعل بنور باهر غمر ارجاءها واستيقظت فيها روح جديدة واستحيا في عروقها الجافة أمل آخر يقوده وجه وضّاء ينغمر بالايمان والثقة والإرادة، قائداً جموعنا الى وكر الخطيئة والاثم ليقول لنا ما لا نعرفه حتى الآن أو ربما يُرينا ما لا نتوقعه، لكنه من المؤكد انه سيضعنا على اعتاب حياة جديدة اخرى، ولكن يبقى هذا مجرد حلم أو وهم؛ فلا يزال السيد يحث خطاه هادئاً، والاضواء تنير له الدرب والنخل والصرائف والحظائر والاكواخ والنساء يتسارعن لتقبيل يديه، ويكلمنه كلاماً متمنى وكان يربت بيده على الرؤوس والاكتاف، والحشود تتماوج خلفه مكسوة بالبرد والغبار المثار من آلاف الاقدام.

Telegram: SOMRLIBRARY

كان الموكب يتكاثر عدداً وتتشظى وجوه الحشود بنيران كثيرة توقَد الآن، حتى لمح السيد نفسه إنّ هناك من كان يصعد النخل ويوقد سعفه المتدلي اليابس فتبدو الاشتعالات الطائرة كشهب ساقطة على الرؤوس.

Telegram: SOMRLIBRARY

مفاتيح الخطأ والخطيئة

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

سيلوح الفجر بعد وقت ليس طويلاً؛ عندما توقف السيد وتوقفت معه الحشود الزاحفة الى مصير مجهول امام كوخ (غراب) فتشكلت دائرة مُضاءة من المصابيح الفائضة بالنور واللهب، وخفّ اصطفاق الاقدام وحفيف العباءات والدشاديش، وكانت العيون تنظر الى السيد الذي بدا ازرق تماماً بعباءته الصوف وغترته الزرقاء.

فيما تعالى واضحاً أنين مسموع من داخل الكوخ الذي كان عبارة عن كدس قصب مائل ملبوخ بالطين المتفطر، وعندما انتظم الجميع رجالاً ونساء، كان الأنين يتفاقم الى صراخ ملتاع لرجل يعرفون مصيبته وفضيحته.وظل السيد صامتاً وهو يكتسي بهيبته الطافحة إلا أن وجهه كان يتلبد بأسى وغيظ، وكانت شفتاه تقرءان شيئاً ما، وأنصت الجميع الى قرار اللحظة الحاسمة وهم ينغمرون بشعور مزدوج من الطمأنينة والخوف وتحتهم تميد الارض الثقيلة، كما لو كانت موطوءة بأكبر الذنوب؛ لكن لابد من الانتظار الاخير بعد انطواء المسافات كلها والتي تعاقبت عبر اجيال ماتت واجيال ولدت ولابد من الانغماس في أسر هذه اللحظة المباركة التي يتولاها الولي الصالح

Telegram: SOMRLIBRARY

وهو يصغي مثلنا الى صراخ الرجل المحاصر بآلام الطلق والمخاض!

هبّت ريح رخيّة باردة رفعت السيد قليلاً، فتطاولت قامته على قامات الجميع الذي أمسكهم سحر اللحظة القلقة، وهم يستمعون بجوارحهم الى ما يقوله:

– الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا الصادق الامين وآله وصحبه الطاهرين وإنا لله وإنا إليه راجعون، والخير في ما اختاره الله عز وجل الذي يقول للشيء كُن فيكون.

ظلت عيناه تطوفان بالفوانيس المعلّقة على كرب النخل وسقوف الاشجار وتلك التي يحملها رجال ونساء وصبيان قريتنا، وظل الصراخ المتوجع وحده تتقاذفه الريح الباردة بيننا فيزيدنا قلقاً ويُشعرنا بالقرف وكان السيد مثلنا يُنصت الى ذلك الوجع فيتبدل وجهه، وتلتقط عيناه عيني الشيخ حسن وهو يلوذ بالمرأة المغطاة بالعباءة، شاحباً، قلقاً، غير قادر على مواجهة السيد ورجالنا أو هكذا كان يبدو طيلة الوقت لسبب لا نعرفه، ولا ندري ما الذي جعله يتحول من حال الى حال، واي كلام مما قاله السيد الذي كان يقول اشياء لا نفهم الكثير منها، والذي يعنيه ربما.

لم يكن شيخنا قادراً على ان يمسك لحظته التي لا يزال فيها شيخاً، بدا انه تخلى عن الكثير مما كان يحمله بين جنبيه، وظل لصيقاً بالمرأة، اللغز التي حرص السيد على إخفائها علينا حتى هذه اللحظة القريبة من الفجر تحت سماء باردة ملبدة بالاضواء المشتعلة في كل مكان، فيما كانت العجوز تقبض على يد السيد بقوة وهي تغمغم بين الحين

Telegram: SOMRLIBRARY

والآخر وتشتم رجالاً من قريتنا بأسمائهم ولم يخلص الشيخ حسن آل خيون من لسانها عدداً من المرات، إلا أنه يتوارى عنها لائذاً بالمرأة الغريبة، يحتمي بها، وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد! وهو دائم النظر الى السماء، وظل السيد يقول اشياء صامتة، متغير الملامح والقسمات، واقفاً بقامته التي تعلو القامات، حتى تكلم اخيراً، بعد ان هدأ الى حد ما صراخ (غراب) وخفتت آلامه بين الصمت الذي عاد ليجلب الينا المشاعر المضطربة، ثم تحرّك السيد خطوة او خطوتين بمسافة قصيرة فصلته عن المرأة العجوز والاخرى التي يلوذ بها الشيخ حسن.

ثم قال:

– ايها الرجال.يا أهل العشيرة ومن جاء اليها رائياً. من غاب منكم فقد حضر، بلغوا انفسكم اولاً انه ما من مصيبة تبدأ إلا وتنتهي، وكل بلوى لها عمر مهما طال، اسأل الله تعالى ان ينجينا جميعاً من المعاصي والآثام.. وبإذن الله الجبار سيعود الظفر الى إصبعه والمشيمة الى رحمها.

ثم عاد التفتح الى وجهه المنير، فارتسمت آمال جديدة ولاحت في العيون المتعبة وهي تحفر في الليل الطويل عن اية بارقة، وها هي البوارق تلوح في وجه السيد ذي الكرامات المعروفة.

كان يتوسط حشودنا، وكانت قامته تزداد هيبة ومن حوله تتشكل هالة زرقاء، وبدأ الصراخ من جديد، كان الكوخ المائل يشي بحال من احواله العزلة والوحدة والوحشة فكان الصراخ يمزقنا نحن، يحيل وجودنا الى ذنب تشترك القرية في تسبيبه وتكريسه، ولعل السيد عنبر

Telegram: SOMRLIBRARY

كان يعرف هذا وربما أكثر منه، وما ان اخذ الصراخ يتعالى وبانَ إنَ غراب في لحظات الولادة الاخيرة، حتى خطا السيد بضع خطوات باتجاه الكوخ المتداعي، ومن حوله تتعمق الهالة الزرقاء، وكنا نزداد خوفاً، وفي دواخلنا تتفاقم احتمالات سيئة تنامت فينا طيلة الليل الى هذه الخطوات الذاهبة الى كوخ الخطأ والخطيئة، وما كان السيد الفارع يصل الى الباب الخشبي المتآكل حتى كان الصراخ قد اخذ يخفت شيئاً فشيئاً ويتحول الى أنين موصول. ثم يكف كلياً فيعود الصمت يلفنا ثانية وتتوالد الهواجس، إلا ان السيد يبدو انه حزم الامر فدفع الباب ودخل منحنياً. ثم اغلقه وراءه وبشعور لا ارادي كانت اقدامنا تعترض المسافات الصغيرة. وتزحف متمهلة لتقترب من الكوخ، فلعلنا نسمع ما يقوله السيد او نرى شيئاً مما يفعله او نرى الحقيقة الرهيبة بأعيننا في كوخ هذا النغل القديم وهو يستحوذ على ايامنا بقسوة.

وحينما تجرأ بعض رجالنا وهم يدسون آذانهم في الخصائص المائلة للكوخ، علّهم يسمعون شيئاً او يَرون من الفجوات ما يمكن رؤيته كانوا يرجعون رؤوسهم خائفين وخائبين، كأنما الصمت المطبق الذي لفّ الكوخ وشوّش في الرؤوس المكتظة بالسوء والخير معاً، فيما انشغل كثيرون بقراءة الأدعية وما يحفظون من آيات قرآنية، معلنين التوبة، امام حياة لا تستحي إذ كانت على منوال ما فعله غراب وكأنها، بدت الآن، مثل القشرة المفطورة، لا تساوي شهقة او دمعة او حسرة.

وتبقى في الصدور حدوس مختلطة، ليس لديها الرغبة في الخلاص

Telegram: SOMRLIBRARY

من نفق مظلم وُضعنا فيه ببلوى (غراب) وكأنه تماماً استباح عذرية الجميع مرة واحدة، وألقانا في تنور تشظت نيرانه خارج حدوده تطشر دخانه على وجوهنا.

ظل الصمت يسحق انتظارنا الممل. وارتاب الرجال لحقيقة السكون المرير الذي شمل الكوخ وغيّب السيد كل هذا الوقت، فزحف بعضهم متستراً ببقع الظلام المتكونة من الظلال الطويلة للنخل والرجال وتمهل بعضهم الآخر في استجلاء شيء من السر الكامن من وراء الصمت الذي يعّم الكوخ، إلا أن الوقت اخذ يمضي قاطعاً الصبر الطويل في تباشير الغبش الذي تلوح به السماء.فاستدرج الرجال بعضهم الى بعض بالوصول الى خصائص الكوخ، وتحلّق خلق كثير منقادين وراء حسم طال الآن عليهم، وتناسوا انتظارهم الطويلة عبر الايام والاسابيع الفائتة من دون أمل واضح لهم، غير انهم الآن يرتبطون بالشعرة الاخيرة وقد لا ينفع مضيّ وقت آخر في السيطرة على جموحهم النافر، ولذلك كان الشيخ حسن يتوارى دائماً خلف المرأة المعبأة بالسواد. وكان يُشغل نفسه، كلما مرق الوقت، بالتحدث اليها همساً، بينما اخذت العجوز تفترش الارض المغطاة بالقش والاتربة وهي تشعر بالاجهاد والنعاس والذبول.وجلست الى جانبها بعض النساء المعصبات بالفوط في محاولة لمعرفة ما يفعله السيد داخل الكوخ وسر الصمت الذي يملأ الداخل بعد ان كان صراخاً مستمراً وأنيناً متوجعاً لرجل على وشك الولادة او الموت!

إلا ان العجوز كانت تتثاءب وتستغفر الله وتغلق عينيها الكليلتين،

Telegram: SOMRLIBRARY

وفي تقادم الوقت الحرج شمّ الرجال الذين احاطوا بالكوخ متلصصين رائحة بخور او نبات آخر، ثم شيئاً فشيئاً ظل ينبثق نور حليبي شفاف من داخل الكوخ المتداعي.

طلع من مسامات القصب مثل حُلم ابيض، كان اول الامر كأنه غشاوة حطّت على العيون بسبب الانتظار المؤرق، غير انه بان كحقيقة أكيدة، ورغم هذا، فان بعضهم رآه وكأنه انعكاس لزحمة الاضواء التي احاطت بالكوخ. إلا أن النور الحليبي اخذ يطلع من الشقوق الكثيرة وينمو مثل نبات مقدس اخذ يشكل من مخارجه المتعددة ظلالاً بيضاً ناصعة انعقدت فوق الرؤوس وتطاولت متلاحقة بحيث جعلتنا نفغر افواهنا خائفين وقلقين.

خرج كل هذا في زحمة الصمت الغامض والإبهام الذي تفتق عن نور باهر تزايد بتوسع شقوق الخصائص، ثم افصح عن اكداس اخرى من ضوء مماثل تعاقب وتزاحم بارئحة زكية تشبه رائحة البخور او الاضرحة ملأت الارواح المائلة لقدر قلق وافحمت فيها روح اليأس المعتق من ازمات بعيدة، ونفخت في مساربها روح الامل المرتقب عبر مفازات الليل وخطوات السيد التي ابتدأها من اول المساء.

وحتى هذه اللحظة القريبة من بيضة الفجر، وفي عيوننا المؤرقة كان كل شيء يتحول الى ضوء عظيم اخذت الزرقة تحفه ببطء، كما لو ان الفجر سينبثق بعد لحظات.

ثم انبثق فجأة صراخ وليد جعلتنا نفتح عيوننا على وسعها غير مصدقين ان غراب قد ولد فعلاً!

Telegram: SOMRLIBRARY

تناهى الينا الصراخ الوليد واضحاً وضوح الاضواء المختلطة امامنا، فكبّر الرجال مأخوذين بهذا الحدث الجلل وتزاحمت الاكتاف والاجساد يكتنفها الارتباك والفوضى والخوف والفرح ايضاً!

وما كان احد قادراً على فهم ما لا يمكن ان يُفهم، مع انه صار حقيقة ستشخص امامنا بعد قليل، وكان النور الازرق يتقاطر هو الآخر ممتزجاً بما هو طافح من نور حليبي شفيف كأنه اول الفجر، وكان يختلط امام الوجوه المندهشة وهي تترقب السيد عنبر الذي انفتح امامه باب الكوخ مصدراً صريراً ضعيفاً، فطلعت اولاً دفقة عجيبة من زرقة تهادت كغيمة منعتقة تتقدم السيد العظيم الذي خرج إلينا، يخطو بأرديته الزرقاء حاملاً بين يديه كتلة لحمية مشوبة بلطخات دماء غضة، وثمة صراخ وليد متخافت بعث فينا الدهشة والرعب، لكننا لا نملك الآن إلا التصديق امام ما نراه من اعجوبة هزت ضمائرنا وزرعت فينا الخوف قبل اي شيء آخر.

يا سبحان الله!

إنه وليد حقيقي، لا تزال دماء الولادة على جسده العاري، وكانت العيون تتطلع اليه لا تريد ان ترى الحقيقة المريرة امامها بيّنة على شكل خطيئة ونتيجة لكنها لابد ان تصدق في نهاية الامر.

لم يكن امامنا إلا الاعتراف بكل شيء بالخطأ الجسيم والنهاية البشعة لرجل ولد فعلاً بطريقة لا نعرف كيف تمّت، لكن هذا ما حدث فعلاً، وتزاحم الرجال ليروا الوليد المعفر بالدماء وكان السيد محفوفاً بلون ازرق شفاف، كان من السهل ان نشم فيه عطر البخور

Telegram: SOMRLIBRARY

والآس والمسك والعنبر، هكذا خليط من رائحة عجيبة طوقته وامتدّت اغصانها إلينا ونحن نتبارك بمرأى كل شيء يحصل الآن فنقترب من السيد والوليد بشكل دوائر متداخلة نلهج ونعترف بهذه المعجزة التي حلّت على يد سيد مشهود له بالكرامات والعدل والحكمة، والذي دخل الكوخ بقامته العملاقة وخرج بوليد عار لا يزال دم الولادة على جسده الصغير وخرجت قبله ومعه اكداس من الروائح والانوار المختلطة فأنارت القرية واخرجت فجراً سعيداً من حوصلة الليل، لاحت تباشيره من تحت سقوف النخل والاشجار والنور المتداخل بعد الولادة الفريدة لحياة لم تفصح عن ملامحها كاملة سوى إن طفلاً غريباً قد ظهر محمولاً بين يدي السيد ومحاطاً بالانوار والروائح العبقة. وسوى ان بهجة مختلطة بغموض مجهول يجتاح رجالنا بسؤال عن مصير (غراب) الذي اورثنا كل هذه العناءات، ثم صمت صمتاً لا نعرف ما وراءه، وعندما كان السيد يخطو بالطفل بين الجموع المتدافعة، كان الشيخ حسن آل خيون يزداد انحساراً وإنكماشاً وكان يدفع بنفسه الى اية زاوية تقيه انظار السيد، ولعل المرأة كانت مثله، خرجت عن انكفائها الغريب، واخذت تتشبث بعباءتها وتدفع بالشيخ بعيداً عنها.

فيما واصل السيد خطواته الهادئة مُحاطاً بالأنوار الزرقاء وروائح الحقول التي تفتقت مع الفجر البازغ للحظته، وكان يرفع الوليد بين يديه امام الحشد المهتاج، وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

ظل الوليد مستكيناً بين يديه، وعندما وقف السيد انتظم الرجال

Telegram: SOMRLIBRARY

والنساء وغمرهم صمت مفاجئ بعدها قال السيد بنبرة صافية صفاء الفجر الذي حلّ:

– الحمد لله رب العالمين الذي لا يحمد على مكروه سواه.. ما من مصيبة تبدأ إلا وتنتهي، وكل بلوى لها عمر مهما طال... والحمد لله الذي أعاد الظفر الى إصبعه والمشيمة إلى رحمها!

اهتزت رؤوسنا وغمرنا صمت جليل لا نظير له وكان السيد ينظر الى وجوهنا بعينين واسعتين ووجه متفتح ابداً وهو يقول:

– ما كانت عيونكم ترى ما اراه، ولقد رأتني امرأة ارتكبت خطيئة قبل ثلاثين سنة ماضية، ورجل ضلّ وطغى واغمض عينيه ثلاثين سنة، وبعضكم ممن أراه عاش زمن الخطيئة فسكت مثل الشيطان الاخرس ثلاثين سنة كاملة فخرّب المرعى، ولكن.. ها هو الزمن يعود بأمر الله تعالى ثلاثين سنة ليرجع الراجع الى مرعاه وتتطهر الارحام من الفساد.

وكان يبحث عن عيني الشيخ حسن فوجده لائذاً وراء المرأة المرتعشة، وأحسسناه مخذولاً وخائفاً امام لغز اخذت مفاتيحه تتراءى امامنا بصورة جلية، فيما كان السيد يتقدم بخطوات بطيئة والرجال يقسمون الطريق امامه. والوليد يستكين على ساعدين حانيتين وجموع القرية تنتظر المطاف الاخير.

فجأة توقف السيد وخلّى عينيه بعيني الشيخ حسن وكانت المرأة لصيقة به ترتعش مثل سعفة.

فقال بهدوء:

Telegram: SOMRLIBRARY

– ما عاد غراب بينكم، لأنه لم يكن بينكم اساساً.. فتوهمتم به، وبعضكم أوهم بعضكم الآخر.. فصار الذي صار.. لقد خدعتم انفسكم ثلاثين سنة يا آل خيون.

طافت عليه سحابة زرقاء فاستدار الى الآخرين، وهو يقول:

– يا آل خيون سترون ذلك بأعينكم الآن؟ أطفئوا الفوانيس والمشاعل فالفجر جاء..

انطفأت الاضواء بشكل متسارع وتكسر زجاج الفوانيس امام فوضى الانطفاءات السريعة، وعمّ الظلام القرية رغم تباشير الفجر الملوحة تحت سقوف النخيل والاشجار وبدا ان رجالنا يغرقون في ظلام ضيق على ما ظل مجهولاً فيهم، وفي نصف استدارة استدارها مولانا السيد حتى اخذ يخطو باتجاه الكوخ المتداعي، وجلبت انظارنا غيمة براقة زرقاء كانت تحوم حول السيد ثم انارت جزءاً من الكوخ الذي اخذ يتصاغر وتنكمش اركانه، وفي خطوات السيد الذاهبة اليه، كان العجب يتملك حضورنا الذي بات مشوشاً.

عندما توقف توقفنا وراءه، فيما كان الكوخ عبارة عن شبح اخذ يتلاشى فعلاً كما لو كان يتبخر وحسبنا إن (غراب) سيظهر عارياً ووحيداً وصارخاً، إلا ان هذا لم يحدث فقد يكون ما نراه الآن مجرد وهم او حلم او هو بقايا نُعاس خاثر في العيون، لم يكن ثمة شيء يوحي بوجود كوخ.

كانت سدرة تتراءى اغصانها مثل اصابع طويلة، وقف السيد تحتها مظللاً بالغيمة الزرقاء التي تكتثفت واستقرت على رأسه كبقعة

Telegram: SOMRLIBRARY

من السماء متوهجة، فيما عاد السيد يخطو من جديد تاركاً البقعة تنزلق على خشب السدرة باتجاه الشيخ حسن والمرأة الملتاعة، وعندما وقف امامهما وهو يحمل الطفل الوليد بيديه، قال للشيخ حسن شيئاً لم نسمعه، فمّد الشيخ يدين مرتعشتين وحمل الوليد، متحاشياً النظر الى الوجوه القريبة منه، وانسل مرتعداً، مقروراً، وقد تبعته المرأة المغطاة باتجاه الظلام، وكان الفجر يطل متمهلاً كاشفاً عن ضوء سماوي حميم هو مزيج من الزرقة الشفيفة والبياض الوليد والسواد الغض وانعقد فوق الرؤوس إلا ان الغيمة الزرقاء اتسعت من جديد فكشفت امامنا السدرة الشاخصة ثم علت وهي تحوم فوق رأس السيد عنبر فاختلطت بأرديته الشبيهة، وعلت فوق سقوف النخيل والاشجار. ولم تترك غير فراغ عطر، وكانت عيوننا ترقبها وهي تشهق عالياً، كما لو اخذت معها شيئاً مدنساً عاث فينا وقتاً طويلاً.

فيما كانت اليقظة المباركة لفجر ندي يتفتح الآن لنغتسل فيه ونحن ترى نوراً غضاً ينبثق من وجه السيد وينتشر في الانفاس وتسربت الى اعمق من ذلك حافرة ينابيع من الفرح المقدس في الاعماق وهي تطوي آثامها لحظة بعد لحظة مستنجدة بماء الكوثر الرائق في مقدم الفجر المنبثق قطرة قطرة لا يتبدد رذاذه عبثاً، إلا كما اوصى به السيد عنبر في ان يكون حلماً لا مرئياً مزدحم الالوان. يمرق بين الاجفان خاطفاً يقظاً لا تباح الآثام في مجساته الأليفة، ليترك فيضاً من الألق المنبعث من روح الفجر الازرق ونداه النابض وصلوات السيد وانهمار دموعه الزرقاء طيلة ليلة باردة ثقيلة بدت وكأنها لا تريد ان تنتهي

Telegram: SOMRLIBRARY

امام هذا الاغتسال المهيمن على ارواح الرجال الذين بدأوا الآن من ثلاثين سنة ماضية معفرة بالذنوب والخطايا، والنساء المنصتات الى موسيقى الحياة المبثوثة في لية التطهر والتكفير بأمل فذ، اتضح تماماً انه لن يكون كاذباً هذه المرة بوجود السيد عنبر الذي هبطت عليه الغيمة الزرقاء مع اكتمال الفجر وحملته فوق مراوح السعف وقامات الاشجار واتحد من اجله في تلك اللحظة المباركة هدير عارم اخذ يشتد، كلما بعُدت به الغيمة، لتستيقظ كل القرى المجاورة، وهي تلوّح للرجل العظيم مغتسلة بالفجر الازرق المبارك.

كانون الثاني- تموز- 1997

بغداد

Telegram: SOMRLIBRARY

الفهرس

1 . مفاتيح الكلام 7
2 . مفاتيح السؤال 23
3 . مفاتيح السيد 43
4 . مفاتيح الخطأ والخطيئة 67

Telegram: SOMRLIBRARY

مولد غْراب

مولد غْراب .. الطبعة الخامسة

تعيد دار سطور نشر رواية المبدع وارد بدر السالم «مولد غْراب» بطبعةٍ خامسة بعد نفاد طبعاتها السابقة في القاهرة وبغداد، منطلقة من يقين ثابت بتبني السرد العراقي الذي يشكّل اليوم علامة بارزة من علامات الأدب العراقي.

«مولد غْراب» الرواية القصيرة التي غابت فترة طويلة بتلك الطبعات تعود من جديد وتستنهض المكان الجنوبي بكل تجلياته الأسطورية والخرافية وقيمه وعاداته وتقاليده في إطار حكاية شابَها الخيال والوهم والتأويل في احترافية سردية استوطنت قلم المبدع السالم وهو يفتح عالم الأهوار بطريقة سحرية عجائبية كما حدث في كتابه «المعدان» ذائع الصيت ومن ثم روايته «شبيه الخنزير» التي كانت سطور قد طبعتها العام الماضي طبعة جديدة.

«مولد غْراب» حكاية من حكايات الأهوار، غريبة في نسجها، عجائبية وغير ممكنة في موضوعها، لكن السالم تمكن من إحالتها الى رمزية متقنة وفتح أمامها التأويل الى آخر مدياته النقدية..

وحينما صدرت هذه الرواية بطبعاتها الأولى قبل 2003 في بغداد نعتقد إنها كانت جريئة في وصفها للحالة العامة في رمزية بقيت مخفية بطريقتها حتى وإنْ كانت مكشوفة الرمز للقاريء الذكي..

الناشر

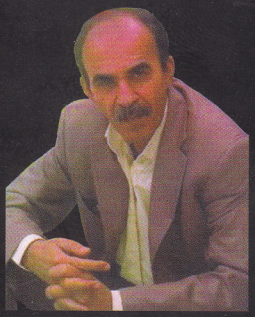

وارد بدر السالم

ISBN 978-0-00-000078-1
99339
9 780000 000781

سطور
للنشر والتوزيع

Sillat Media Design

Telegram: SOMRLIBRARY